

عقيدة الإمام الذهبي

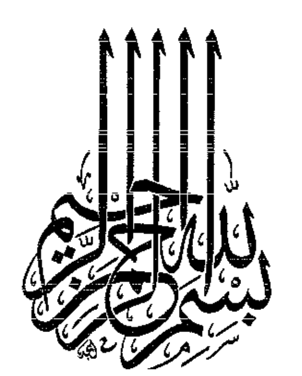
الطبعة الأولى

١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

عقـــيدة الإمام الذهبي

بقـــــلم

سليمان بن صالح الخراشي



مقدمة

إنّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾(١)، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾(٢)، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾(٣)

أما بعد.. فطالما سمعتُ من بعض الإخوة عند حديثهم عن الإمام الذهبي ـ رحمه الله ـ أنه متساهل في بعض أبواب العقيدة؛ كمسائل القبور والدعاء عندها ونحو ذلك من المسائل، فكنت أتعجب من هذا الأمر أن يصدر من إمام (سلفي) كالذهبي

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٢.
(٢) سورة النساء، الآية: ١.
(٣) سورة الأحزاب، الآيتان: ٧٠، ٧١.

ـ رحمه الله ـ لاسيما وقد اشتهرت رفقته بشيخ الإسلام ابن تيمية وتلاميذه ـ رحمهم الله ـ الذين كانوا خير رادٍ على من زاغ من الأمة في هذه الأبواب.

وهذا ما دعاني عند قراءتي لمصنفات هذا الإمام أن أقيد ما يمر بي من تعليقات له في مسائل العقيدة بأنواعها، إلى أن تجمع لديَّ من ذلك كمٌ عظيم قمت بترتيبه على أبرز أبواب العقيدة لمعرفة مسلك الذهبي في تلكم الأبواب، وبيان ما له وما عليه[١]، لكي لا نُحَمل الرجل ما لم يقله أو يذهب إليه من تساهل في أبواب الشرك مثلاً أو تجويزه لبعض المسائل البدعية التي لم يقل بها.. وهكذا.

وليُعلم بعد هذا أن التأليف في عقائد العلماء والمشاهير هو مما لا يُستنكر إذا كان بعلم وعدل، مع وضع كل إنسان في منزلته دون غلوٍ فيه أو تجانف عنه، لأن مثل هذه المؤلفات مما ينير للأمة طريقها، فيعلم أفرادها حقيقة مناهج هؤلاء المشاهير وما وُفقوا فيه فيستفاد منه، وما أخطؤا فيه فيُعرض عنه، لكي

---

(١) أثناء اعدادي لهذا الكتاب علمت بوجود رسالة ماجستير بعنوان «منهج الذهبي في العقيدة وموقفه من المبتدعة» من إعداد الشيخ سعيد بن عيضه الزهراني في جامعة الإمام، قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة، عام ١٤١٢هـ. فقمت بالاطلاع عليها والإفادة منها. ونظرًا لتأخر طبعها فقد حرصت على تقديم كتابي هذا ـ على ما فيه من قصور ـ للطبع، والله الموفق.

لا تزل الأمة بسبب زلة العالم، كما قيل «زلَّةُ العالِم زلةُ العالَم».

ومما يُسر المرء أن هذا المنهج في دراسة عقائد العلماء والمشاهير قد بُدِئَ به من قبل جامعاتنا، حيث صدرت عدة دراسات في هذا المقام؛ مثل:

١- عقيدة الإمام ابن قتيبة للدكتور علي العلياني[١].

٢- عقيدة الإمام ابن عبدالبر للشيخ سليمان الغصن[٢].

٣- عقيدة الإمام الأزهري للدكتور علي العلياني[٣].

٤- الإمام الشاطبي: عقيدته وموقفه من البدع وأهلها[٤].

٥- الإمام الخطابي ومنهجه في العقيدة[٥].

٦- منهج الشهرستاني في كتابه «الملل والنِحَل» للشيخ محمد السحيباني[٦].

٧- آراء ابن حبان في مسائل العقيدة للشيخ عبدالعزيز المبدل[٧].

٨- عقيدة سيف الدين الآمدي في النبوة والرسالة للشيخ حسين

---

(١) اصدار مكتبة الصديق بالطائف. ط ١، ١٤١٢هـ.

(٢) اصدار دار العاصمة بالرياض. ط ١، ١٤١٦هـ.

(٣) أصدار دار الوطن بالرياض. ط ١، ١٤١٨هـ.

(٤) أصدار مكتبة الرشد بالرياض. ط ١، ١٤١٨هـ.

(٥) اصدار دار الوطن بالرياض. ط ١، ١٤١٨هـ.

(٦) اصدار دار الوطن بالرياض. ط ١، ١٤١٧هـ.

(٧) رسالة ماجستير بجامعة الملك سعود، قسم الثقافة الإسلامية، ١٤١٧هـ.

السعيدي[١] .

٩- منهج أبي الثناء الألوسي في أصول الإيمان للشيخ عبدالله الخضير[٢] .

١٠- منهج الحافظ ابن حجر في العقيدة من خلال كتاب «فتح الباري» للأستاذ محمد إسحق كندو[٣] .

١١- منهج القاضي عياض في العقيدة للشيخ غسان عبدالرحمن[٤] .

١٢- ابن الجوزي بين التأويل والتفويض للشيخ أحمد الزهراني[٥] .

لهذا كله أحببت أن أسلك مسالك هؤلاء الأفاضل بذكر عقيدة إمام مشهور أفاد الناس من علومه وتصانيفه، مأخوذة من معظم كتبه، مع تحري العدل والإنصاف معه ـ رحمه الله ـ والدعاء له بأن يجزيه الله أحسن الجزاء على ما قدَّم لأمته من علمٍ يُنتفع به على مر الدهور نظرًا لارتباطه بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

(١) رسالة ماجستير بجامعة أم القرى، الدعوة وأصول الدين، العقيدة والمذاهب المعاصرة، ١٤١٨هـ.

(٢) رسالة ماجستير بجامعة الإمام، قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة، ١٤١٣هـ.

(٣) رسالة ماجستير بالجامعة الإسلامية، الدعوة وأصول الدين، العقيدة، ١٤١٦هـ.

(٤) رسالة دكتوراه بالجامعة الإسلامية، الدعوة وأصول الدين، العقيدة، ١٤١٤هـ.

(٥) رسالة ماجستير بجامعة أم القرى، الشريعة والدراسات الإسلامية، الدراسات العليا الشرعية، ١٣٩٧هـ.

وستكون هذه الدراسة عبر الأبواب التالية :

١- ترجمة موجزة للإمام الذهبي .

٢- أقوال الإمام الذهبي في أبواب التوحيد .

٣- عقيدة الإمام الذهبي في باب الأسماء والصفات .

٤- مسائل عقدية أخرى .

٥- عقيدة الإمام الذهبي في كلام الله .

٦- عقيدة الإمام الذهبي في الصحابة الكرام .

٧- الإمام الذهبي وأهل البدع .

***

ترجمة موجزة

للإمام الذهبي

ـ رحمه الله ـ

حياة المؤلف بإيجاز[1]

○ اسمه وكنيته ولقبه ونسبه:

هو أبو عبدالله، شمس الدين، محمد بن أحمد بن عثمان ابن قايماز بن عبدالله الذهبي، التركماني الأصل، الدمشقي المولد، الشافعي المذهب.

○ ولادته:

ولد في دمشق في شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وسبعين وستمائة.

○ نشأته وتكوينه الثقافي:

طلب الحديث وله ثماني عشرة سنة. وتنقّل في مدن الشام، وأخذ عن المشايخ فيها؛ فسمع في دمشق، وبعلبك، وحمص، وحماة، وحلب، وطرابلس، ونابلس، والرملة، والقدس. ورحل إلى مكة، والإسكندرية، وبلبيس، والقاهرة، وغيرها.

○ مكانته العلمية:

تبوأ الحافظ الذهبي ـ رحمه الله ـ من العلم منزلة لم يصلها

---

(١) نقلاً عن مقدمة كتابه «الأربعين في صفات رب العالمين». وانظر للاستزادة من ترجمته: الوافي بالوفيات للصفدي ٢/ ١٦٣. وطبقات الحفاظ للسيوطي ص ٥١٧. وشذرات الذهب لابن العماد ٦/ ١٥٣. وكتاب الدكتور بشار عواد «الذهبي ومنهجه في كتابه تاريخ الإسلام»، وكتاب «الحافظ الذهبي» لعبد الستار الشيخ.

من العلماء إلا القليل، وحظيت كتبه بصيت واسع وذكر شائع عند أهل العلم فتلقوها بالقبول.

وقد أشاد به، وبمصنفاته عدد كبير من العلماء؛ منهم السبكي الذي قال عنه: «هو إمام الوجود حفظًا، وشيخ الجرح والتعديل، ورجل الرجال في كلّ سبيل...».

وقال عنه الصفدي: «فقيه النظر، له دراية بأقوال الناس ومذاهب الأئمة من السلف وأرباب المقالات...».

وقال ابن حجر: «شربت ماء زمزم لأصل إلى مرتبة الذهبي في الحفظ».

وعده السيوطي أحد أربعة كان المحدثون في عصرهم عيالاً عليهم في الرجال وسائر الفنون.

○ مؤلفاته:

للحافظ الذهبي ـ رحمه الله ـ مؤلفات كثيرة جدًا في مختلف الفنون، إلا أن أشهرها هو في علم التاريخ والتراجم، ومن ذلك:

١- تاريخ الإسلام.
٢- سير أعلام النبلاء.
٣- معجم الشيوخ.
٤- تذكرة الحفاظ.
٥- طبقات القراء.

وهو ـ رحمه الله ـ برغم توجهه الواسع نحو التاريخ وكتب الرجال ـ كما سبق ـ إلا أنه خصَّ العقيدة بعدة كتب يتبين منها مذهبه الذي اعتقده واختاره.

وهذه الكتب كالتالي:

١- أحاديث الصفات[1] لعله في ذكر الأحاديث الصحيحة الواردة في اثبات صفات الله ـ عز وجل ـ وهو مشابه جدًا لما بعده، إن لم يكن أوسع منه.

٢- الأربعين في صفات رب العالمين[2].

٣- جزء في الشفاعة[3]، لعله في اثباتها وذكر أحاديثها.

٤- جزءان في صفة النار[4]، لعله في ذكر الآيات والأحاديث الواردة في بيان صفتها.

٥- الروع والأوجال في نبأ المسيح الدجال[5]، لعله في ذكر الأحاديث الواردة في ذكر المسيح الدجال، وبيان صفته، وكيفية خروجه . . . إلخ.

---

(١) قال الدكتور بشار عواد: «ولا نعرف منه نسخة» (ص ١٤٥).

(٢) طبع بتحقيق الدكتور عبدالقادر بن محمد عطا صوفي، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ، الناشر: مكتبة العلوم والحكم بالمدينة.

(٣) قال الدكتور بشار: «ولا نعرف اليوم له نسخة» (ص ١٤٦).

(٤) قال الدكتور بشار: «ولا نعرف اليوم له نسخة» (ص ١٤٦).

(٥) لم يصل إلينا إلى الآن.

٦- كتاب رؤية الباري[١]، لعله في اثبات أدلة رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة، والرد على المعتزلة.

٧- كتاب العرش[٢].

٨- العلو للعلي العظيم[٣].

٩- كتاب ما بعد الموت[٤].

١٠- كتاب مسألة دوام النار[٥].

١١- كتابَ مسألة الوعيد[٦].

○ **وفاته:**

توفي الحافظ الذهبي ـ رحمه الله ـ ليلة الاثنين ثالث ذي القعدة سنة ثمان وأربعين وسبعمائة. ودفن في مقابر باب الصغير في دمشق.

○ **رثاء الناس له:**

رثاه جماعة من العلماء بأبيات كثيرة. أكتفي ببيتين مما قاله

(١) قال الدكتور بشار: «ولم يصل إلينا» (ص ١٤٧).

(٢) ذكر الدكتور بشار بأن قسمًا منها يوجد في المكتبة الظاهرية باسم «رسالة في أن الله على العرش» (ص ١٤٨).

(٣) طبع مراراً، واختصره الألباني.

(٤) قال الدكتور بشار: «وهو اليوم في عداد المفقودات» (ص ١٥٠).

(٥) قال الدكتور بشار: «ولا يُعرف منه نسخة» (ص ١٥٠).

(٦) قال الدكتور بشار: «ولا نعرف له نسخة اليوم» (ص ١٥١).

الصفدي، وثلاثة مما قاله السبكي:

فمما قاله الصفدي في رثاء الحافظ ـ رحمه الله ـ:

لمّا قضى شيخنا وعالمنا   ومات في التاريخ والنسبِ
قلت عجيبٌ، وحقّ ذا عجبا   كيف تخطّى البِلى إلى الذهبِ

ومما قاله السبكي:

مَنْ للحديثِ وللسارين في الطلبِ
مِنْ بعد موت الإمام الحافظ الذهبي
ثبتٌ صدوقٌ خبيرٌ حافظٌ يقِظٌ
في النّقل أصدق أنباءً من الكتب
الله أكبر ما أقرا وأحفظه
من زاهدٍ ورعٍ في الله مرتقبِ

❊ ❊ ❊

أقوال الإمام الذهبي في

أبواب التوحيد

نظرًا لأن الإمام الذهبي ـ رحمه الله ـ قد انصرفت جهوده وتآليفه إلى علمي التاريخ والرجال، فإننا لهذا لا نكاد نجد له ما يوضح لنا بجلاء موقفه المفصّل من مسائل علم التوحيد لاسيما توحيد الألوهية. سوى كلمات ومقاطع يسيرة لا تفي بغرض الباحث عن رأي الذهبي في كل مسألة ولو كانت فرعية.

ثم نجده ـ رحمه الله ـ قد خصَّ توحيد الأسماء والصفات بمزيد تعرضٍ له في كتبه وتعقباته الكثيرة على الرجال ـ كما سبق ـ وفي ظني أن السبب لهذا هو ظهور وتشعب الخلاف والتنازع في هذا القسم من التوحيد بين طوائف الأمة أكثر من غيره، لا سيما في زمن الذهبي.

وأيضًا كثرة من يثير مواضيعه وجزئياته من أهل البدع من المعتزلة والأشاعرة الذين لا عناية لهم بتوحيد الألوهية ـ كما هو معلوم ـ.

ولهذا فقد كان الذهبي مرآةً لما يدور في عصره من نزاعات وخلافات كان جُلها من نصيب توحيد الأسماء والصفات.

أما توحيد الربوبية فهو ـ كما لا يخفى ـ مما لا نزاع فيه بين أحدٍ من الطوائف، سوى في طرق اثباته.

أما توحيد الألوهية وهو التوحيد الذي عليه مدار عبادة الله تعالى، ولأجله قامت سوق العداوة والبغضاء بين الرسل وأممهم، وبه يتميز الموحِّد من المشرك.

هذا التوحيد لم أعثر للذهبي فيه طولَ نَفَس في تبيان مسائله، أو تعظيم أهميته وشأنه، ماعدا إدراجه مسائل قليلة منه في كتابه «الكبائر» دون توسع؛ كقضية الشرك بالله[١] والسحر[٢] والذبح لغير الله[٣]، وهذا مما يؤخذ عليه ـ رحمه الله ـ لا سيما وهو في زمنٍ قد انتشرت فيه مظاهر الشركيات، وتعاظمت فيه أنواع البدع والخرافات، من دعوة غير الله، أو التوسل به، أو الخضوع والذل لقبره، أو . . . إلخ من مظاهر البدع والشركيات المعروفة.

كان المؤمل من الذهبي ـ رحمه الله وعفا عنه ـ أن يخصَّ هذا التوحيد بكتاب أو بتوسع في توضيحه لعامة الناس في عصره، لاسيما وقد عَرَضت له في كتبه عدة مواضع تستوجب مثل هذا البحث والإلحاح عليه، لا أن يكتفي فيه بعباراتٍ نادرة، أو بتجويز بعض ما يقدح فيه، أو يكون وسيلةً من وسائل انتشار البدع والشرك في الأمة ـ كما سيأتي ـ.

ومما يؤكد ـ ما سبق ـ أنني عثرت للذهبي ـ رحمه الله ـ على كلمة خصَّ فيها توحيد الأسماء والصفات وتوحيد الربوبية بالذكر، ولم يتعرض فيها لتوحيد الألوهية!

قال ـ عفا الله عنه ـ بعد أن ذكر مسألة (هل يعرف الكافر ربَّه؟):

---

(١) الكبائر (ص ٢٤) تحقيق مشهور سلمان.
(٢) الكبائر (ص ٣٢).
(٣) الكبائر (ص ١٧٨).

«قلتُ: المشركون والكتابيُّون وغيرُهم عرَفوا اللهَ تعالى بمعنى أنَّهم لم يَجْحدوه، وعَرَفوا أنَّه خالِقُهم، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[(١)]، وقال: ﴿۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[(٢)] فهؤلاء لم يُنكِرُوا البارئَ، ولا جَحَدُوا الصانعَ، بل عَرفُوه، وإنما جَهِلُوا نُعُوتَه المُقَدَّسة، وقالوا عليه ما لا يعلمون، **والمؤمنُ فعرف ربَّه بصفاتِ الكَمال، ونفىٰ عنه سِماتِ النَّقْصِ في الجُملة، وآمن بِرَبِّه، وكفَّ عَمّا لا يعلَمُ**، فبهٰذا يتبيَّنُ لك أَنَّ الكافر عرفَ الله من وَجْهٍ، وجَهِلَهُ من وُجوه، والنبيُّون عرفوا اللهَ تعالى، بعضُهم أكملُ معرفةً لله، والأولياءُ فعرفُوه معرفةً جيِّدة، ولكنَّها دون معرفةِ الأنبياء، ثم المؤمنون العالمون بعدَهم، ثم الصالحون دونَهم. فالناسُ في معرفةِ ربِّهمُ مُتفاوِتُون، كما أَنَّ إيمانَهم يزيدُ وينقُص، بل وكذلك الأُمَّةُ في الإيمانِ بِنبيِّهم والمعرفةِ له على مراتب، فأرفعُهم في ذلك أبو بكر الصديق مثلاً، ثم عددٌ من السابقين، ثم سائر الصحابة، ثم علماءُ التابعين، إلى أن تنتهي المعرفةُ به والإيمانُ به إلى أعرابيٍّ جاهلٍ وامرأةٍ من نساء القُرى، ودون ذلك. وكذلك القولُ في معرفة الناس لدين الإسلام»[(٣)].

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٨٧.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ١٠.

(٣) السير (١٧/ ٥٤٧-٥٤٨).

قلت: والفارق العظيم بين المؤمن والكافر المشرك لم يذكره الذهبي ـ رحمه الله ـ! وهو أن المؤمن الحقَّ عرف الله و «وحَّدَه» أي أفرده بالعبادة، أما المشرك فعرف الله ـ أي وجوده ـ ولكنه لم «يوحده» أي لم يُفرده بالعبادة، ولكنه أشرك معه غيره.

لأجل ما مضى كله لاحظ بعض العلماء على الذهبي عدة ملاحظات وأخطاء وقعت منه في باب توحيد الألوهية وما يتعلق به من مسائل، وقد حاولتُ أن أذكرها هنا ليتنبه لها من يقرأ لهذا الإمام العظيم فلا يزل أو «يتساهل» فيما تساهل فيه، ولكي لا نتقول عليه ـ رحمه الله ـ ما لم يقله، أو نظن فيه الظنون الخاطئة عندما نرى شيئًا من تلكم العبارات فنُحَمله ما هو أعظم منها، مما هو منه برئ ـ كما سيأتي ـ.

○ **وهذه الأخطاء هي:**

١ - أنه ـ رحمه الله ـ يشير في تراجمه للرجال إلى أن قبر «المترجم له» يُزار، أو أنه قد عُملت عليه قبّةٌ، أو أنه يعد مشهدًا، أو أنه عُملت على قبره عدة ختمات للقرآن، ولا يتعقب ذلك بكلام يجلي حُكم هذه المسألة، ويبين بدعة مثل هذه الممارسات المحدثة.

فمن ذلك:

* قوله في ترجمة خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ: (له مشهد

يُزار)[١]، ولم يتعقبه بشيء.

* وقوله في ترجمة أبي القاسم التيمي: (كان يملي شرح «صحيح مسلم» عند قبر ولده أبي عبدالله)[٢]، ولم يتعقبه بشيء.

* وقوله في ترجمة الخطيب البغدادي: (وختم على قبره عدة ختمات)[٣]، ولم يتعقبه بشيء.

* وقوله في ترجمة ابن زيرك: (وقبره يزار ويُتبرك به)[٤]، ولم يتعقبه بشيء.

* وقوله في ترجمة العجلي: (ذكر ابن النجار أن قبره يُقصد بالزيارة)[٥]، ولم يتعقبه بشيء.

* وقوله في ترجمة الخِلَعي: (قال الأنماطي: قبر الخِلعي بالقرافة يعرف بقبر قاضي الجن والإنس، يُعرف بإجابة الدعاء عنده)[٦]، ولم يتعقبه بشيء.

* وقوله في ترجمة أبي جعفر الهاشمي: (ولزم الناس قبره مدةً حتى قيل: خُتم على قبره عشرة آلاف ختمة)[٧]، ولم

(١) السير (١/ ٣٨٤).
(٢) السير (٢٠/ ٨٣).
(٣) السير (١٨/ ٢٨٦).
(٤) السير (١٨/ ٤٣٤).
(٥) السير (٢٠/ ٩٦).
(٦) السير (١٩/ ٧٦-٧٧).
(٧) السير (١٨/ ٥٤٧).

يتعقبه بشيء.

* وقوله في ترجمة قسيم الدولة: (نقله ولده «الأتابك زنكي» وأنشأ عليه قبه)[١]، ولم يتعقبه بشيء.

* وقوله في ترجمة نور الدين زنكي: (قبر نور الدين بتربته عند باب الخواصين يُزار)[٢]، ولم يتعقبه بشيء.

* وقوله في ترجمة صالح بن أحمد: (ويستجاب الدعاء عند قبره)[٣]، ولم يتعقبه بشيء.

* وقوله في ترجمة الخِرقي: (وقبره يزار بمقبرة باب الصغير)[٤]، ولم يتعقبه بشيء.

* وقوله في ترجمة أم حرام ـ رضي الله عنها ـ: (وبلغني أن قبرها تزوره الفرنج)[٥]، ولم يتعقبه بشيء.

* وقوله في ترجمة ابن فورك: (مشهده بالحيرة يزار، ويستجاب الدعاء عنده)[٦]، ولم يتعقبه بشيء.

* وقوله في ترجمة ابن وكيع: (وبنوا على قبره قُبه)[٧]، ولم

---

(١) السير (١٩/ ١٣٠).
(٢) السير (٢٠/ ٥٣٩).
(٣) السير (١٦/ ٥١٩).
(٤) السير (١٥/ ٣٦٣).
(٥) السير (٢/ ٣١٧).
(٦) السير (١٧/ ٢١٥).
(٧) السير (١٧/ ٦٤).

يتعقبه بشيء .

* وقوله في ترجمة ابن لال : (الدعاء عند قبره مستجاب)[١] ، ولم يتعقبه بشيء .

* وقوله في ترجمة ابن تركان : (وقبره يزار)[٢] ، ولم يتعقبه بشيء .

* وقوله في ترجمة محمد بن عقبة : (انتاب الناس قبره نحو السنة)[٣] ، ولم يتعقبه بشيء .

* وقوله في ترجمة الاسفراييني : (بني على قبر أبي عوانة مشهد بإسفرايين يُزار)[٤] ، ولم يتعقبه بشيء .

* وقوله : (لعلي بن موسى مشهد بطوس يقصدونه بالزيارة)[٥] ، ولم يتعقبه بشيء .

* وقوله في ترجمة السميساطي : (قبره بالخانقاه يزار)[٦] ، ولم يتعقبه بشيء .

* وقوله في ترجمة إبراهيم بن أدهم : (وقبره يزار)[٧] ، ولم

---

(١) السير (١٧/ ٧٦) .

(٢) السير (١٧/ ١١٦) .

(٣) السير (١٤/ ٢٢١) .

(٤) السير (١٤/ ٤١٩) وقد أجاد محقق هذا الجزء من السير في بيان بدعة هذا العمل .

(٥) السير (٩/ ٣٩٣) .

(٦) السير (١٨/ ٧٢) .

(٧) السير (٧/ ٣٩٦) .

يتعقبه بشيء .

* وقوله : (وبداريّا قبرٌ يُزار يقال : إنه قبر أبي مسلم الخولاني)[١]، ولم يتعقبه بشيء .

* وقوله في ترجمة الكامل! : (قال المُنذريُّ : مات بدمشق في الحادي والعشرين من رَجَب سنة خمس وثلاثين وست مئة، ودُفن في تابوت .

قلت : ثم بعد سنتين عُمِلت له التُّربة، وفُتِحَ شُبّاكُها إلى الجامع)[٢]، ولم يتعقبه بشيء .

٢- ومن ذلك أنه ـ عفا الله عنه ـ يذكر أثناء حديثه بعض التعبيرات الخاطئة التي تقدح في التوحيد من حلف بغير الله ونحوه، ولا يتعقب شيئًا منها بإنكار وتبيين لما فيها من انحراف عن جادة الصواب .

ومثال ذلك :

* أنه ذكر قصةً لشبيب بن شيبة بن الحارث جاء فيها : «قدِمت الشِّحْرَ[٣] على رئيسها، فتذاكَرنا النَّسْناسَ[٤]. فقال : صيدوا

---

(١) السير (٤/ ١٤).

(٢) السير (٢٢/ ١٣١).

(٣) مكان بين عدن وعُمان.

(٤) يقال بأنه خلق على صورة الإنسان ولكن بعين ورجل ويد واحدة وهذا كله من =

لنا منها. فلما أن رحتُ إليه، إذا بِنَسْنَاسٍ مع الأعوان، فقال: أنا بالله وبك[١]! فقلتُ: خلُّوه، فخلّوه، فخرج يعدو..»[٢].

ولم يتعقب ـ رحمه الله ـ هذه الكلمة «أنا بالله وبك» بشيء، مع أنها تقدح في التوحيد.

* ومن ذلك أنه ذكر شعرًا لأبي نواس قاله للأمين جاء فيه:

(وحياةِ رأسك لا أعو ... د لمثلها من خوف بأسك
من ذا يكون أبا نوا ... سك إن قتلتَ أبا نواسك)[٣]

ولم يعلق على قوله «وحياة رأسك» بشيء، وهو من الحلف بغير الله، وهو محرم لا يجوز، لقوله ﷺ: «**من حلف بغير الله فقد كفر**»، وفي رواية: «**فقد أشرك**»[٤].

= الخرافات. انظر: «حياة الحيوان» للدميري (٢/ ٣٥٢-٣٥٣).

(١) قال محقق هذا الجزء من السير ـ جزاه الله خيرًا ـ تعليقًا على هذا الموضع: «الصواب في هذا وأمثاله أن يقال: أنا بالله، ثم بك، ففي «المسند» ٥/ ٣٨٤ و ٣٩٤ و ٣٩٨، وأبي داود (٤٩٨٠) من حديث حذيفة بن اليمان مرفوعًا «لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله، ثم شاء فلان» وإسناده صحيح، وله شاهد من حديث ابن عباس عند أحمد ١/ ٢١٤ و ٢٢٤ و ٢٨٣، وآخر من حديث الطفيل بن سخبره عند أحمد ٥/ ٧٢.

(٢) السير (١٣/ ١٣).

(٣) السير (٩/ ٢٨١).

(٤) أخرجه الترمذي (١/ ٢٩٠) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥/ ٦٩).

* ومن ذلك أنه نقل في «السير» عن إسماعيل التيمي قوله: «كان ابن المنكدر يجلس مع أصحابه، فكان يصيبه صُمات، فكان يقوم كما هو حتى يضع خده على قبر النبي ﷺ ثم يرجع، فعوتب في ذلك، فقال: إنه يصيبني خطر، فإذا وجدت ذلك استعنت بقبر النبي ﷺ»[(١)] . ولم يتعقبه بشيء!، بالرغم مما في هذه القصة[(٢)] من لفظةٍ شركية، وهي الاستعانة بقبر النبي ﷺ، وهذا محرمٌ لا يجوز، والله أمر عباده أن يقولوا: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[(٣)] .

٣- ومما أُخذ على الذهبي - رحمه الله - أنه أنكر على الخليفة العباسي المتوكل هدمه قبر الحسين - رضي الله عنه - لما رأى غلو الروافض فيه، ولم يشكره على هذا العمل، بل انساق مع الروافض في الطعن فيه واتهامه بالنَصْب[(٤)] .

حيث قال - رحمه الله -: «وفي سنة ستٍّ وثلاثين هَدَمَ المتوكُل قبرَ الحُسين - رضي الله عنه -، فقال البَسَّامِيُّ أبياتًا منها:

أَسِفُوا عَلَى أَنْ لاَ يَكُونوا شارَكوا فــي قَتْلِــهِ فَتَتَبَّعــوه رَميمــا

(١) السير (٥/ ٣٥٩).

(٢) وهي ضعيفة لأن التيمي هذا ضعيف، كما قال أبو حاتم. انظر: «الميزان» (١/ ٢٥٤) وهذا المناسب لحال ابن المنكدر - رحمه الله - أن لا يصدر عنه مثل هذا العمل.

(٣) سورة الفاتحة، الآية: ٥.

(٤) النَصْب هو بغض آل بيت النبي ﷺ، وعلى رأسهم علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -.

وكان المتوكِّل فيه نَصْبٌ وانحرافٌ، فهَدَم هذا المكانَ وما حوله من الدُّور، وأمر أن يُزرع، ومَنَع الناسَ من انتيابه»[١].

قلت: كان الواجب على الذهبي ـ رحمه الله ـ وهو الخبير بأحوال الناس وتواريخهم أن يشكر للخليفة المتوكل الذي نصر الله به السنة ـ كما هو معلوم ـ صنيعه في هدم ما أحدثه الروافض على قبر الحسين ـ رضي الله عنه ـ من قُبَب ونحوها، وجعلهم قبره مزارًا ومشهدًا لهم يمارسون فيه ألوان الشركيات والبدع ـ كما هو مشتهر من أحوالهم ـ. لا أن ينخدع الذهبي ويسير مع عواطف الروافض ومن شايعهم من المفترين الذين ادعوا زورًا أن المتوكل كان ناصبيًا[٢]، وما ذنبه ـ أي المتوكل ـ إلا أنه ـ رحمه الله ـ نفذ وصية رسول الله ﷺ لوالد الحسين ـ أعني

(١) السير (١٢/ ٣٥).

(٢) ومما يؤسف له أن كثيرًا من تواريخ أهل السنة قد انطلت عليها أكذوبة اتهام المتوكل بالنصب، وهي تهمة لم تنله ابتداءً إلا من الروافض الذين أشاعوها نثرًا وشعرًا مستثيرين عواطف المسلمين تجاه عمل المتوكل.. وهؤلاء جميعًا لم يذكروا دليلاً على اتهامهم هذا سوى أن المتوكل قد هدم قبر الحسين ـ رضي الله عنه ـ وزرع ما حوله قاصدًا إخفاءه، وهذا كله لا يقدح في المتوكل بل هو مما يُشكر له، حيث حافظ على عقائد المسلمين أن تلوثها الروافض الذين اتخذوا من قبر الحسين مكانًا يمارسون فيه شركياتهم. وليس معنى هدمه للقبر أنه استخرج جسد الحسين ـ كما قد يتوهم البعض! ـ وحاشاه من ذلك، بل المقصود هدم ما عليه من بناء وتغييبه عن الناس لئلا يُفتنوا به. وهذا العمل نفسه قد فعله عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ مع قبر دانيال عندما عُثر عليه في الشام. فأمر عمر أن تحفر ١٣ حفرةً ويغيَّب جثمانه في أحدها بالليل، ثم تدفن جميعًا لئلا يعرف الناس قبره فيفتتنوا به عن اخلاص العبادة لربهم.

علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنهما ـ «بأن لا يدع قبرًا مشرفًا إلا سواه بالأرض»[١].

٤- ومما أُخذ عليه قوله: «إن أبا أيوب[٢] قُبر مع سور القسطنطينية وبُني عليه، فلما أصبحوا قالت الروم: يا معشر العرب، قد كان لكم الليلة شأن. قالوا: مات رجل من أكابر أصحاب نبينا، والله لئن نُبش لأضرب بناقوس في بلاد العرب، فكانوا إذا قحطوا كشفوا عن قبره فأُمطروا»[٣]. ولم يتعقب هذه الحكاية بشيء يبين أن لا دخل بين الكشف عن القبر وبين إنزال المطر! الذي ينزل بأمر الله، ولو كان كشف قبور الأنبياء أو الصحابة أو الصالحين من أسبابه لأمر الله به، ولم يأمر بإقامة صلاة الاستسقاء أو دعائه والتضرع إليه سبحانه!!

وإيراد مثل هذه القصص والحكايات دون تعقبها هو سبب من أسباب تساهل الناس في أمور الشرك، وانتشار البدع بينهم ـ ولا حول ولا قوة إلا بالله ـ.

٥- ومما أُخذ على الذهبي قوله في ترجمة: (وقيل: إن قومه حجوا به ليزور النبي ﷺ ويدعو، حتى إذا كان بمنى...)[٤] إلخ.

(١) أخرجه مسلم.
(٢) الأنصاري صاحب رسول الله ﷺ.
(٣) السير (٢/ ٤١٢).
(٤) السير (٤/ ٧).

فالهدف من الحج عندهم هو (زيارة النبي ﷺ) و (الدعاء)! ولا ندري من (سيدعو)!؟

وعقيدة أهل السنة في هذه المسألة ـ كما هو معلوم ـ أن الحج يكون لبيت الله الحرام لا إلى المدينة، أما زيارة المدينة فتكون بنية زيارة مسجد النبي ﷺ لا بنية زيارة قبره ﷺ والدعاء عنده، كما يفعله الجاهلون بسنته ﷺ، لقوله ﷺ: «**لا تُشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى**»[1]، وزيارة المسجد النبوي مسنونة كل وقت، قبل الحج أو بعده، ولا ارتباط بينها وبين الحج كما قد يتوهم البعض.

□ **تعليق:**

قد يقول قائل بأن كل ما ذكرتَه من أخطاء للذهبي وقع فيها، هي مما يُعذر فيه، إما لأن ما ذكره ألفاظ تحمل على المحمل الحَسن، كقوله في كثير من تلك التراجم بأن صاحب الترجمة «له قبر يزار» أو «له مشهد» فهذا لا يدل إلا على مجرد زيارة الناس لقبره، وهو مما يجوز، أو لأنه ـ أي الذهبي ـ مجرد ناقل عن غيره، أو متحدث بما وقع دون زيادة أو نقصان، وليس من شرط المؤرخ أن يتعقب كلَّ ما يرويه بذكر عقيدته أو ما يراه

(١) أخرجه البخاري (٣/ ٥١، ٥٢)، ومسلم (١٣٩٧).

صحيحًا في هذه المسألة المنقولة، فهذا من تكليف ما لا يُطاق، وكما قد قيل: «ناقل الكفر ليس بكافر»[1]، فهكذا هذه الأخبار والوقائع التي ذكرتها هي من هذا القبيل.

أقول:

أولاً: قد يُقال هذا، ولكن مع ذلك لازال اللوم منصبًا على الإمام الذهبي في عدم تعقبه لتلك الأخبار والحكايات، لأنها تمس جناب التوحيد، وقد رأيناه ـ رحمه الله ـ مولع بالتعليق على كل صغيرةٍ وكبيرة مما يستنكره في كتبه! فما باله سكت هنا!؟

أما ادعاء أنه يقصد ببعض عباراته «كقبره يزار» و «له مشهد» معنًى مشروعًا، فهذا مما لا يُسلم، لأنه إذا أراد هذا، فلماذا خصَّ صاحب الترجمة دون غيره بهذا الأمر!؟ لأنه من المعلوم أن قبور المسلمين كلهم تُزار ويُدعى لأصحابها.

في ظني أن الذهبي يقصد بعباراته تلك أن صاحب الترجمة ممن ادعى فيهم العامة الادعاءات الكثيرة من ظهور الكرامات على أيديهم، أو أن الدعاء مستجاب عند قبورهم، ولهذا فهم ينتابون قبورهم لهذه الأغراض غير الشرعية، إما بشد رحل أو بدونه. هذا ما أعتقده، ويوضحه.

(١) أي إذا لم يرضَ به، أما إن نقله ورضي به فهو كافر.

ثانيًا: أنه ـ رحمه الله ـ قد أبان عن عقيدته صراحة في هذه الأمور وما شابهها في مواضع أخرى، تدل على أنه راضٍ بكثير مما سبق أن ذكره ـ رحمه الله ـ.

وإليك تلك التصريحات ثم التعقيب عليها:

(أ) أنه قال معلقًا على حديث: «**لا تُشَد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد**»: «معناه: لا تُشَدُّ الرِّحالُ إلى مسجدٍ ابتغاءَ الأجرِ سوى المساجدِ الثلاثةِ، فإنَّ لها فضلاً خاصًا، فمن قال: لم يدخل في النهي شدُّ الرَّحل إلى زيارة قبرِ نبيٍّ أو وليٍّ، وقفَ مع ظاهر النص، وأنَّ الأمر بذلك والنهيَ خاصٌّ بالمساجد، ومن قال بقياس الأولى، قال: إذا كان أفضلَ بقاع الأرض مساجدُها، والنهيُ وردَ فيها، فما دونها في الفضل كقبور الأنبياء والصالحين، أولى بالنَّهي، أمَّا من سارَ إلى زيارةِ قبرِ فاضلٍ من غير شدِّ رحلٍ، فَقُربةٌ بالإجماع بلا تردُّدٍ، سوى ما شذَّ به الشَّعبيُّ ونحوه، فكان بلغَهُم النهيُ عن زيارة القبور، وما علموا بأنَّهُ نُسِخَ ذلك، والله أعلم»[١].

(ب) قوله: «عن إبراهيم الحربي قال: قبرُ معروفٍ التِّرْياقُ المُجَّرب[٢]، يُرِيدُ إجابةَ دعاءِ المُضطر عنده لأنَّ البقاعَ المباركَة

(١) السير (٩/ ٣٦٨).

(٢) قلت: علق محقق هذا الجزء من «سير أعلام النبلاء» على هذا الموضع بقوله ـ جزاه الله خيرًا ـ: «هذا الكلام لا يسلم لقائله، إذ كيف يكون قبر أحد من الأموات الصالحين=

يُستَجابُ عندها الدُّعاء، كما أَنَّ الدعاءَ في السحر مرجوٌّ، ودُبُر

= ترياقًا ودواءًا للأحياء، وليس ثمة نص من كتاب الله يدل على خصوصية الدعاء عند قبر ما من القبور، ولم يأمر به النبي ﷺ، ولا سنه لأمته، ولا فعله أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولا استحسنه أحد من أئمة المسلمين الذين يُقتدى بقولهم، بل ثبت النهي عن قصد قبور الأنبياء والصالحين لأجل الصلاة والدعاء عندها، فعن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب زين العابدين الثقة الثبت، الفقيه أنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي ﷺ، فيدخل فيها فيدعو، فدعاه، فقال: ألا أحدثك بحديث سمعته من أبي عن جدي رسول الله ﷺ؟ قال: «لا تتخذوا قبري عيدًا، ولا بيوتكم قبورًا، وصلوا علي، فإن صلاتكم وتسليمكم تبلغني حيثما كنتم» أخرجه ابن أبي شيبة (٢/ ٣٧٥) وإسماعيل القاضي في فضل الصلاة على النبي ﷺ رقم (٢٠)، ويقويه ما أخرجه عبدالرزاق في «المصنف» (٦٧٢٦) من طريق سهيل، عن الحسن بن علي قال: رأى قومًا عند القبر، فنهاهم، وقال إن النبي ﷺ قال: «لا تتخذوا قبري عيدًا...».

وأخرجه أبو داود (٢٠٤٢)، وأحمد ٢/ ٣٦٧ من طريق عبدالله بن نافع، عن ابن أبي ذئب، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجعلوا بيوتكم قبورًا، ولا تجعلوا قبري عيدًا، وصلوا عليّ، فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم»، وهذا سند حسن، وأخرج ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢/ ٣٧٦) من طريق أبي معاوية عن الأعمش، عن المعرور بن سويد قال: خرجنا مع عمر في حجة حجها، فقرأ بنا في الفجر: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ [الفيل: ١]، و ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ [قريش: ١]، فلما قضى حجه ورجع والناس يبتدرون، فقال: ما هذا؟ فقالوا: مسجد صلى فيه رسول الله ﷺ، فقال: هكذا هلك أهل الكتاب، اتخذوا آثار أنبيائهم بيعًا، من عرضت له منكم فيه الصلاة، فليصل، ومن لم تعرض له منكم فيه الصلاة، فلا يصل. وإسناده صحيح على شرط الشيخين.

وجاء في «مناسك الحج» للإمام النووي (٦٩/ ٢) وهو من محفوظات الظاهرية ما نصه: كره مالك رحمه الله لأهل المدينة كلما دخل أحدهم وخرج الوقوف بالقبر، قال: وإنما ذلك للغرباء، قال: ولا بأس لمن قدم من سفر، أو خرج إلى سفر أن يقف عند قبر النبي ﷺ، فيصلي عليه ويدعو له ولأبي بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ.

المكتوبات، وفي المساجد، بل دعاءُ المُضْطَرِ مُجَابٌ في أيِّ مكانٍ اتفق، اللهم إنِّي مُضطر إلى العفو، فاعفُ عنِّي»[١].

(ج) قوله في ترجمة السيدة نفيسة: «وقيل: كانت من الصالحات العوابد، والدعاء مستجاب عند قبرها، بل وعند قبور الأنبياء والصالحين»[٢].

(د) قوله تعليقًا على قول أحدهم في الفقيه ابن لال: «الدعاء عند قبره مستجاب»: «الدعاء مستجاب عند قبور الأنبياء والأولياء، وفي سائر البقاع لكن سبب الإجابة حضور الداعي وخشوعه وابتهاله، وبلا ريب في البقعة المباركة وفي المسجد وفي السحر ونحو ذلك يتحصل ذلك للداعي كثيرًا وكل مضطر فدعاؤه مجاب»[٣].

(هـ) قوله في ترجمة الحسن بن علي ـ رضي الله عنه ـ: «ابن عَجْلان عن سُهيل وسعيد مولى المهري، عن حسن بن حسن

= وقال الباجي: فرق مالك بين أهل المدينة والغرباء، لأن الغرباء قصدوا ذلك، وأهل المدينة مقيمون بها، وقد قال ﷺ: «اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد» فتأمل قول مالك: «يصلي عليه ويدعو له ولأبي بكر وعمر» فإن هذه هي الزيارة الشرعية للقبور أن نسلم على أصحابها وندعو لهم كما علمنا رسول الله ﷺ في الحديث المخرج في صحيح مسلم (٩٧٤) عن عائشة، و (٩٧٥) عن بريدة.

(١) السير (٩/ ٣٤٣-٣٤٤).

(٢) السير (١٠/ ١٠٧).

(٣) السير (١٧/ ٧٧).

ابن عليّ أنه رأى رجلاً وقف على البيت الذي فيه قبر النبيِّ ﷺ يدعو له ويُصلِّي عليه، فقال للرجل: لا تفعَل فإن رسولَ الله ﷺ قال: «**لاَ تَتَّخِذُوا بيْتِي عِيدًا، وَلاَ تَجْعَلُوا بيُوتَكُمْ قُبُورًا، وصَلُّوا عَلَيَّ حَيْثُ مَا كُنْتُمْ، فإن صَلاَتَكُمْ تَبْلُغُنِي**»[(١)].

هذا مرسل؛ ومَا استدل حَسَنٌ في فتواه بطائلٍ من الدّلالة، فمَنْ وقف عند الحُجْرةِ المقدَّسةِ ذليلاً مُسَلِّمًا، مصلِّيًا على نبيِّه، فيا طُوبىٰ لِه، فقد أحسَنَ الزِّيارة، وأجمل في التذلُّل والحُبّ، وقد أتى بعبادةٍ زائدةٍ على من صلَّى عليه في أرضهِ أو في صلاته، إذا الزائرُ له أجرُ الزيارة وأجرُ الصلاة عليه، والمصلِّي عليه في سائر البلاد له أجرُ الصلاة فقط. فمن صلَّى عليه واحدةً صلَّى اللهُ عليه عَشْرًا، ولكنَّ مَنْ زارَهُ ـ صلوات الله عليه ـ وأساءَ أدبَ الزِّيارة، أو سجدَ للقبر أو فعل ما لا يُشرع، فهذا فعلَ حَسَنًا وسَيِّئًا فَيُعَلَّمُ بِرفْقٍ، واللهُ غفورٌ رحيم؛ فوالله ما يحصلُ الانزعاجُ لمسلم، والصِّياح وتقبيلُ الجدران، وكثرةُ البكاء، إلاّ وهو

---

(١) حديث حسن وأخرجه ابن أبي شيبة وابن عساكر (٤/ ٢١٧ أ)، وعبدالرازق في المصنف (٦٧٢٦) من طريق سهيل بن أبي سهيل ويقويه ما أخرجه إسماعيل القاضي في فضل الصلاة على النبي رقم (٢٠) من طريق علي بن الحسين أنه رأى رجلاً كان يأتي كُلَّ غداة فيزور قبر النبي ﷺ ويصلي عليه ويصنع ذلك ما اشتهره عليه عليّ بن الحسين، فقال له علي بن حسين: هل لك أن أحدثك حديثاً عن أبي؟ قال نعم، فقال له علي بن الحسين: أخبرني أبي عن جَدِّي أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجعلوا قبري عيدًا ولا تجعلوا بيوتكم قبورًا وصلُّوا علي وسلموا حيث ما كنتم فسيبلغني صلاتكم وسلامكم» وفي سنده مستور وباقي رجاله ثقات.

مُحِبٌّ لله ولرسوله؛ فحُبُّهُ المعيارُ والفارق بين أهل الجنَّةِ وأهل النَّار؛ فزيارةُ قبرهِ من أفضلِ القُرَب، وشدُّ الرِّحال إلى قبور الأنبياء والأولياء، لئن سلَّمنا أنَّهُ غَيْرُ مأذونٍ فيه لعموم قوله صلوات الله عليه: «**لا تَشُدُّوا الرِّحَالَ إلاَّ إلىٰ ثَلاَثَةِ مَسَاجِدَ**»[(١)]، فَشَدُّ الرّحال إلى نَبِيِّنا ﷺ مستلزمٌ لِشدِّ الرَّحْل إلى مسجده، وذلك مشروعٌ بلا نزاع، إذْ لا وصولَ إلى حُجْرتِهِ إلاَّ بعد الدُّخُول إلى مسجده، فليَبْدأْ بتحيَّةِ المسجد، ثم بتحيَّة صاحب المسجد، رزقنا الله وإيَّاكم ذلك آمين[(٢)]»[(٣)].

(و) قوله في ترجمة عَبيدة السلماني: «وروى هشامُ بن حسَّان، عن محمد، عن عَبِيدة، قال: اختلف الناسُ في الأشربة فما لي شراب منذ ثلاثين سنة إلاَّ العَسَل واللَّبن والماء. قال محمد: وقلت لعَبيدةِ: إنَّ عندنا من شَعر رسول الله ﷺ شيئًا من قِبَلِ أنسِ بنِ مالك، فقال: لأنْ يكونَ عندي منه شعرةٌ أحبُّ إليَّ من كلِّ صفْراء وبيْضاء على ظَهْرِ الأرض.

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم ـ كما سبق ـ.

(٢) علق محقق هذا الجزء من «سير أعلام النبلاء» على هذا الموضع بقوله: «قصد المؤلف ـ رحمه الله ـ بهذا الاستطراد الردَّ على شيخه ابن تيمية الذي يقول بعدم جواز شد الرحال لزيارة قبر النبي ﷺ ويرى أن على الحاج أن ينوي زيارة المسجد النبوي، كما هو مبين في محلِّه»، ولم يبين ـ هداه الله ـ الصواب في هذه المسألة المهمة، بل تركه حيران لا يدري مع مَن الحق، مع الذهبي أم مع شيخه!!

(٣) السير (٤/ ٤٨٣-٤٨٥).

قلت : هذا القولُ من عَبِيدة هو مِعْيارُ كمالِ الحبِّ ، وهو أن يُؤْثِرَ شعرةً نَبَوِيَّةً على كُلِّ ذهبٍ وفِضَّةٍ بأيدي الناس . ومثل هذا يقولهُ هذا الإمامُ بَعْدَ النبيِّ ﷺ ، بخمسين سنة ، فما الذي نقولُهُ نحنُ في وقتنا لو وَجَدْنا بعضَ شعره بإِسنادٍ ثابت ، أو شِسْعَ نَعْلٍ كان له ، أو قُلاَمَةَ ظُفْرٍ ، أو شَقَفَةً من إناءٍ شَرِبَ فيه . فلو بذَلَ الغنيُّ مُعْظَمَ أمواله في تحصيلِ شيءٍ مِنْ ذلك عنده ، أكنْتَ تعدُّهُ مُبَذِّرًا أو سفيهًا؟ كلاّ . فابذُلْ ما لَكَ في زَوْرَةِ مسجدِهِ الذي بَنَىٰ فيه بيدِهِ والسَّلام عليه عند حُجْرَتِهِ في بَلَده ، والتذَّ بالنَّظرِ إلى «أُحُدِه» وأَحِبَّه ، فقد كان نبيُّكَ ﷺ يُحِبُّه ، وتَمَلأْ بالحُلُول في رَوْضته ومَقْعَدِه ، فلن تكونَ مؤمنًا حتى يكونَ هذا السيِّدُ أحبَّ إليكَ من نفسك وولدِك وأموالِك والناس كُلِّهم . وقبِّل حجَرًا مكرَّمًا نَزَلَ من الجنَّة ، وَضَعْ فَمَكَ لاثِمًا مكانًا قبَّله سيِّدُ البَشَر بيَقين ، فهنَّأَكَ الله بما أعطاك ، فما فوق ذلك مَفْخَر . ولو ظَفِرنا بالمِحْجَنِ الذي أشارَ بِهِ الرسولُ ﷺ إلى الحَجَر ثم قَبَّلَ مِحْجَنه ، لحُقَّ لنا أنْ نزدحِمَ على ذلك المِحْجَن بالتقبيل والتبجيل . ونحنُ نَدْري بالضرورة أنَّ تقبيلَ الحَجَر أرفعُ وأفضلُ مِنْ تقبيل مِحْجنِه ونَعْلِه .

وقد كان ثابتُ البُنَانيّ إذا رأى أنسَ بن مالك أخذ يَدَه فَقبَّلَها ، ويقول : يدٌ مسّت يد رسول الله ﷺ ، فنقول نحن إذْ فاتنا ذلك : حَجَرٌ معظَّمٌ بمنزلةِ يمينِ الله في الأرض مسَّته شفَتا نبيِّنا ﷺ

لائمًا له. فإذا فاتك الحجُّ وتلقَّيْتَ الوَفْد فالتزم الحاجَّ وقبِّلْ فَمَه وقلْ: فمٌ مسَّ بالتقبيلِ حَجَرًا قبَّلَهُ خليلي ﷺ»[1]!!

☐ **تعقيب:**

يؤخذ من تأمل كلام الذهبي ـ رحمه الله ـ في هذا الباب أنه:

١- يرى أن الدعاء مستجاب عند قبور الأنبياء والصالحين، لأنها بقاع مباركة. وهذا مأخوذ من صريح قوله ـ كما سبق ـ.

٢- أنه لم يجزم بشيء (واضح) في حكم شد الرحل لزيارة قبر النبي ﷺ وقبور غيره من الصالحين، حيث ذكر رأي المجيزين وادعى أنهم واقفون «مع ظاهر النص» من قوله ﷺ: «**لا تشد الرحال..**»!! وفي موضع آخر قال: «وشد الرحال إلى قبور الأنبياء والأولياء لئن سلمنا أنه غير مأذون فيه..» وهذه عبارة مشعرة بتردده في هذه المسألة![2] وكان الأحرى به ـ عفا الله عنه ـ أن ينصر القول الصحيح في هذه

---

(١) السير (٤/ ٤٢-٤٣).

(٢) ومثله قوله في معجم الشيوخ (٢/ ٣٠٨) متحدثاً عن فضيلة الموت بالمدينة كما جاء في الحديث الصحيح: «من استطاع أن يموت بالمدينة فليمتْ..» وأنه لا حرج من شد الرحل إليها لأجل ذلك. قال الذهبي: «لم يدخل ذلك في النهي، فإنما حقيقة النهي في النص هو عن شد الرحال إلى مسجد غير المساجد الثلاثة، كيف والمسلم لا ينفك قصده في سفره إلى المدينة لمجرد الموت بها عن قصد المسجد المؤسس على التقوى، كما لا ينفك القصد فيهما عن حب الأُنس بقرب ساكن الحجرة...» أي النبي ﷺ. فمن تأمل كلامه - رحمه الله - وجده يخص النهي عن شد الرحال في الحديث بالمساجد، دون غيرها من قبور الأولياء والصالحين، فضلا عن قبر محمد ﷺ! لا كما فهمه بعض الفضلاء من أنه (مصرحٌ) بعدم جواز شد الرحال لزيارة القبور.

المسألة اتباعًا للحديث السابق، ويحذر المسلمين من مخالفة نهيه ﷺ بدلاً من هذا التذبذب.

٣- ادعاؤه أن شد الرحل لزيارة قبره ﷺ مستلزم لشد الرحل إلى مسجده، وهو مشروع، ولم يبين - رحمه الله - ما ينويه شاد الرحل إلى المدينة النبوية، هل ينوي زيارة المسجد، أم ينوي زيارة القبر، أم كليهما!؟ وشتان ما بينهما - كما سيأتي -.

٤- تجويزه تقبيل فم الحاج لأنه فمٌ قد مسَّ الحَجَر الذي قبله رسول الله ﷺ!!

قلت: وجميع المسائل السابقة قد أخطأ فيها الذهبي - رحمه الله - وتوضيح ذلك بالآتي:

١- أما أن الدعاء مستجاب عند قبور الأنبياء والصالحين فهذا مما لا دليل عليه، بل هو بدعة شنيعة ووسيلة من وسائل الشرك - والعياذ بالله -.

ولقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن الدعاء عند قبور الصالحين هل هو جائز، وهل هو مستجاب!؟

«فأجاب: ليس الدعاء عند القبور بأفضل من الدعاء في المساجد وغيرها من الأماكن، ولا قال أحد من السلف والأئمة: إنه مستحب أن يقصد القبور لأجل الدعاء عندها؛ لا قبور الأنبياء ولا غيرهم؛ بل قد ثبت في صحيح البخاري أن عمر بن الخطاب استسقى بالعباس - عم النبي ﷺ - وقال: اللهم إنا كنا نستسقي إليك بنبينا

فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا فيسقون. فاستسقوا بالعباس كما كانوا يستسقون بالنبي ﷺ؛ لأنه عم النبي ﷺ.

وما كانوا يستسقون عند قبره، ولا يدعون عنده؛ بل قد ثبت عن النبي ﷺ في الصحاح أنه قال: «**لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**» يحذر ما فعلوا، وقال قبل أن يموت بخمس: «**إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد؛ فإني أنهاكم عن ذلك**»، وفي السنن عنه ﷺ قال: «**لعن الله زوارات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسرج**». فإذا كان قد حرم اتخاذها مساجد والايقاد عليها علم أنه لم يجعلها محلاً للعبادة لله والدعاء. وإنما سن لمن زار القبور أن يسلم على الميت، ويدعو له، كما سن أن يصلي عليه قبل دفنه ويدعو له. فالمقصود بما سنه ﷺ الدعاء للميت، لا دعاؤه. والله أعلم»[١].

وقال ـ رحمه الله ـ: «وأما زيارة قبور الأنبياء والصالحين لأجل طلب الحاجات منهم، أو دعائهم والاقسام بهم على الله، أو ظن أن الدعاء أو الصلاة عند قبورهم أفضل منه في المساجد والبيوت، فهذا ضلال وشرك وبدعة باتفاق أئمة المسلمين، ولم يكن أحد من الصحابة يفعل ذلك، ولا كانوا إذا سلموا على

(١) الفتاوى (٢٧/ ١٨٠-١٨١).

النبي ﷺ يقفون يدعون لأنفسهم، ولهذا كره ذلك مالك وغيره من العلماء، وقالوا إنه من البدع التي لم يفعلها السلف»[١].

٢- وأما مسألة شد الرحل لزيارة قبر النبي ﷺ فكان الواجب على الذهبي ـ غفر الله له ـ أن يوضح حكمها لعموم المسلمين بلا تردد أو تساهل. وهو أنه لا يجوز ذلك امتثالاً لقوله ﷺ في الحديث المتفق على صحته: «**لا تُشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد..**» الحديث.

وقد أطال أئمة السلف في التحذير من التساهل في هذه المسألة التي هي إضافةً إلى مخالفتها لنهي النبي ﷺ فإنها ذريعة إلى الشرك والغلو في قبور الأنبياء. وقد حذَّر النبي ﷺ أمته من هذا[٢].

٣- وأما أن شد الرحل لزيارة قبر النبي ﷺ مستلزم لشد الرحل إلى مسجده، فنعم.

ولكن؛ الأول ممنوع والثاني مشروع، والفرق بينهما نية شاد الرحل. ولا يجوز لأحدٍ أن يهوّن من شأن النية وارتباطها بالعبادات، فقد قال النبي ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما**

(١) الفتاوى (١٧/ ٤٧١).

(٢) انظر الأدلة التفصيلية في المنع من هذه البدعة: كتب شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «الرد على الأخنائي» «الرد على البكري» «المجلد السابع عشر من الفتاوى» وكتاب «الصارم المنكي» لابن عبدالهادي. وكتاب «أوضح الإشارة في الرد على من أجاز الممنوع من الزيارة» للشيخ أحمد النجمي.

لكل امرئ ما نوى»[1] .

فالنية أمرها عظيم؛ لأنها الفارقة بين العبادات والأعمال المتشابهة، حيث يُثاب الإنسان على العمل الذي خلصت نيته فيه وكان موافقًا للسنة، ويعاقب أو يذم على ما فسدت نيته فيه .

مثال ذلك: من قاتل الأعداء بنية رفع كلمة الله ثم مات في المعركة فإنه يُعد من الشهداء الذين يعطيهم الله ما وعدهم به في القرآن والسنة من الأجر العظيم، بخلاف من قاتل الأعداء بنية أن يُقال عنه بأنه شجاع أو قاتلهم حميّةً، فإنه إذا مات لا يُعد من الشهداء وقد وعده الله بالعذاب الشديد، كما أخبر بذلك ﷺ، برغم أن العملين متشابهان؛ ولكن فرقت بينهما النية .

وهكذا شد الرحل لزيارة قبر النبي ﷺ ممنوع منه، بخلاف شد الرحل لزيارة مسجده ﷺ فإنه من القُرب والعبادات، برغم أن شد الرحل سيكون لمكان واحد، ولكن فرقت بينهما النية .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «وقد ثبت بالنص والإجماع أن المسافر ينبغي له أن يقصد السفر إلى مسجده والصلاة فيه، وعلى هذا فقد يقال: نهيه عن شد الرحال إلا إلى المساجد الثلاثة لا يتناول شدها إلى قبره فإن ذلك غير ممكن،

---

(١) متفق عليه .

لم يبق إلا شدها إلى مسجده وذلك مشروع، بخلاف غيره، فإنه يمكن زيارته فيمكن شد الرحل إليه. لكن يبقى قصد المسافر ونيته ومسمى الزيارة في لغته هل قصده مجرد القبر أو المسجد أو كلاهما، كما قال مالك لمن سأله عمن نذر أن يأتي إلى قبر النبي ﷺ فقال: إن كان أراد مسجد النبي ﷺ فليأته وليصلّ فيه، وإن كان أراد القبر فلا يفعل، للحديث الذي جاء «**لا تُعمَل المطي إلا إلى ثلاثة مساجد**»[١].

وقال ـ رحمه الله ـ: «وهل يترك قصد السفر إلى مسجده للصلاة فيه ـ مع كونه يعلم أنه إنما يصل إلى مسجده ـ إلا من هو جاهل بدينه أو كافر بما جاء به؟ فإن هذا ليس عليه في النية كلفة أصلاً. فإنه إذا كان لا بد له من الوصول إلى المسجد ومن الصلاة فيه لم يبق إلا أنه يقصد ذلك في ابتداء السفر. فإذا لم يقصده فإنه يكون جاهلاً بأن ذلك مستحب مشروع كما يوجد عليه كثير من الجهال يظنون أن المشروع إنما هو السفر إلى القبر والسفر إلى المسجد تبع للقبر، فإذا عُرِّف الجاهل بسنته المعلومة عند جميع علماء أمته ثم من بعد ذلك يشاق الرسول من بعد ما تبين له الهدي ويتبع غير سبيل المؤمنين فإن الله يوليه ما تولى ويصليه جهنم وساءت مصيراً»[٢].

---

(١) الرد على الاخنائي، ص١٦.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٢-٢٣.

٤ - أما تجويز الذهبي تقبيل فم الحاج لأنه فمٌ قد مسَّ الحجر الذي قبله رسول الله ﷺ، فهو مما لم يقل به أحد من العلماء، وهو عملٌ يستنكف عنه المؤمنون.

أما قياس ذلك على تقبيل رسول الله ﷺ للمحجن الذي مسَّ به النبي ﷺ الحجر ثم قَبَّله، فهو قياس مع الفارق. لأن الحجر جماد لا يُستنكر تقبيله، فهو واسطة بين الرسول ﷺ وبين الحجر. وليس في تقبيله أي إخلال بمروءة المُقَبِّل لأنه مما تستسيغه نفوس العقلاء، بخلاف تقبيل فم الحاج، الذي يستنكره العقلاء، ولم يأخذ به ﷺ أو أحد من أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ.

قلت: تبين بهذا أن الإمام الذهبي ـ عفا الله عنه ـ متساهل في بعض أمور هذا الباب من أبواب التوحيد، أعني (توحيد الألوهية)، وهذه الأمور مما قد تكون ذريعة إلى ارتكاب المحرمات والبدع والشركيات من الجهلة الذين لن ينتهوا إلى ما انتهى إليه الذهبي وغيره من العلماء فيها، بل سيتخطون ذلك إلى غيره مما لا يؤيده الذهبي أو لم يدر بخلده.

ولكي لا يتقول متقول على الذهبي أو يُحَمل كلامه ما لا يحتمل، أو يلزمه بلوازم شنيعة لم يقل بها؛ كتعظيم القبور، أو طلب المدد والشفاعة منها، والتوسل بها... إلخ بدع

وشركيات القبوريين فإنني أنقل له كلاماً صريحاً في ذم هذا وعده من أفعال الجهلة والعوام الذين لم ينتهوا عند عقيدة السلف .

قال ـ رحمه الله ـ في ترجمة النصر اباذي : «قال السُّلَمي ، وقيل له : إنكَ ذهبتَ إلى النَّاووس وطُفتَ به ، وقلْت : هذا طَوافي فَتَنَقَّصْتَ بهذا الكعبة ! ! قال : لا ، ولكنَّهما مخلوقان ، لكنْ بها فضلٌ ليس هنا ، وهذا كمن يُكرمُ كلباً ، لأنه خَلْقُ الله ، فعوتب في ذلك سنين .

قلتُ : وهذه وَرْطةٌ أُخرى . أفتكونُ قبلةُ الإسلام ، كقبرٍ ويُطاف به ، فقد لعن رسول الله من اتخذ قبراً مسجداً» . (١)

وقال ـ أيضاً ـ في ترجمة نفيسة : «ولجهلة المصريين فيها اعتقاد يتجاوز الوصف ، ولا يجوز مما فيه من الشرك ، ويسجدون لها ، ويلتمسون منها المغفرة ، وكان ذلك من دسائس دعاة العبيدية . (٢)

* * *

(١) السير (١٦/ ٢٦٤) .
(٢) السير (١٠/ ١٠٦) .

عقيدة الإمام الذهبي في
الأسماء والصفات

سبق أن علمنا أن للذهبي عدة كتب وأجزاء في اثبات صفات الله ـ عز وجل ـ كما وردت في الكتاب والسنة، وبمراجعة ما وصل إلينا منها نستطيع أن نستخرج منها الصفات التي أثبتها الذهبي وأقرَّ بها.

فمن ذلك: كتابه «الأربعين في صفات رب العالمين» أثبت فيه:

١- صفة الاستواء على العرش.
٢- صفة العلو.
٣- صفة النزول.
٤- صفة اليد.
٥- صفة الوجه.
٦- صفة القدم.
٧- صفة الساق.
٨- صفة الأصابع.
٩- صفة المجيء والإتيان.

ومن ذلك: كتاب «العلو للعلي الغفار» أثبت فيه صفة (العلو) الواردة في الكتاب والسنة، ذاكرًا أقوال السلف في اثباتها، والرد على من أنكرها.

أما أقواله الكثيرة المبثوثة في كتبه فقد أبان فيها عن منهجه في

الصفات، وأثبت صفاتٍ كثيرة غير ما سبق. وأنا سأنقل أقواله متتالية ثم أتلوها بمختصر يبين منهجه.

فمن ذلك: أنه قال في كتابه «الأربعين..» بعد ذكر صفة المجيء والإتيان: «فهذا باب واسع في المجيء والإتيان الوارد في الكتاب والسنة، وأقوال السلف في حق الحي القيوم الدائم الذي لا يحول ولا يزول، نؤمن به وبما ورد من نعوته، ونقف حيث وقف القوم، ونسأل الله تعالى أن يثبت في قلوبنا الإيمان به وبأسمائه وصفاته»[١].

وقال: «اعلم أن الله تعالى لا مثيل له بوجه من الوجوه، فمن شبه الله بخلقه فقد كفر، وخاب وخسر، ولا يلزم من ذلك أن ننفي عنه صفاته المقدسة؛ فهو الإله العظيم المنعوت بما وصف به نفسه على ألسنة رسله عليهم السلام» إلى أن قال: «وإنما هذا باب سبيله الإيمان والتصديق بالنصوص»[٢].

وقال: «أخبرنا إسماعيلُ بن عبدالرحمن المُعَدَّل سنة ثلاث وتِسعين وستٍّ مئة، أخبرنا الإمامُ أبو مُحمد بن قُدامة، أخبرنا محمدُ بن عبدالباقي، أخبرنا أبو الفَضْل أحمدُ بن خَيرون، وأبو الحسن بن أيّوب البَزّاز، قالا: أخبرنا أبو علي الحَسنُ بن أحمد،

(١) ص ١٦٤.

(٢) الأربعين في صفات رب العالمين (ص ١٦٥-١٦٦).

أخبرنا أبو سَهل بن زِياد القَطّان، أخبرنَا محمدُ بن إسماعيل التِّرمذي، سَمِعتُ نُعيمَ بن حَمّاد يقولُ: مَنْ شَبَّه اللهَ بخلقِه، فقد كَفَر، ومن أنكر ما وَصَف به نفسَه، فقد كفَر، وليسَ في ما وصَفَ اللهُ به نفسَه ولا رسولُه تَشبيه.

قلتُ: هذا الكلامُ حقٌّ، نَعوذُ بالله من التَّشبيه ومِن إنكارِ أحاديثِ الصِّفات، فما يُنكِرُ الثابتَ منها مَن فَقُهَ، وإنما بَعْدَ الإيمانِ بها هنا مقامانِ مذمومان:

تأويلها وصرفُها عن موضوعِ الخِطاب، فما أوَّلَها السَّلَفُ ولا حَرَّفُوا ألفاظَها عن مَواضِعها، بل آمَنوا بها، وأمَرُّوها كما جاءت.

المقام الثاني: المُبالغة في إثباتها، وتَصوُّرُها من جِنس صِفاتِ البَشر، وتشكُّلها في الذِّهن، فهذا جَهلٌ وضَلال، وإنما الصِّفَةُ تابعةٌ للموصوفِ، فإذا كان الموصوفُ عزَّ وجلَّ لم نَره، ولا أخبرنا أحدٌ أنّه عايَنَه مع قَولِه لنا في تَنزيله: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾[1] فكيفَ بقي لأذهانِنا مَجالٌ في إثبات كَيفيَّة البارئ، تعالى الله عن ذلك، فكذلك صفاتُه المُقدَّسة، نُقِرُّ ونعتقِدُ أنها حقٌّ، ولا نُمثِّلها أصلاً ولا نَتَشكَّلُها»[2].

(١) سورة الشورى، الآية: ١١.

(٢) السير (١٠/ ٦١٠-٦١١).

وقال في ترجمة الباقلاني: «قلتُ: هو الذي كان ببغداد يُناظِرُ عن السُّنَّة وطريقةِ الحديث بالجَدَل والبُرهان، وبالحضرةِ رؤوسُ المُعْتَزِلَةِ والرافِضَةِ والقَدريَّة وألوانِ البدع، ولهم دولةٌ وظُهورٌ بالدولة البويهية، وكان يردُّ على الكرّاميَّة، وينصُرُ الحنابلةَ عليهم، وبينه وبين أهل الحديث عامِرٌ، وإن كانوا قد يختَلِفون في مسائل دقيقة، فلهذا عامَلَه الدارقطنيُّ بالاحترام، وقد ألَّف كتابًا سمّاه: «الإبانة»، يقولُ فيه: فإن قيل: فما الدليلُ على أنّ لِلَّه وجهًا ويدًا؟ قال: قوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾[1]، وقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[2] فأثبت تعالى لنفسِهِ وجهًا ويدًا. إلى أن قال: فإن قيل: فهل تقولون: إنَّه في كل مكان؟ قيل: معاذَ اللهِ! بل هو مُسْتَوٍ على عرشِهِ كما أخْبرَ في كتابه. إلى أن قال: وصفاتُ ذاتِهِ التي لم يزل ولا يزالُ موصوفًا بها: الحياةُ والعلمُ والقُدرةُ والسمعُ والبصرُ والكلامُ والإرادةُ والوجهُ واليدانِ والعينانِ والغضبُ والرضى. فهذا نصُّ كلامه. وقال نحوَه في كتاب «التمهيد» له، وفي كتاب «الذَّبِّ عن الأشعريِّ» وقال: قد بَيَّنَّا دينَ الأُمَّة وأهلِ السُّنَّة أنَّ هذه الصفات تُمَرُّ كما جاءت بغير تكييفٍ ولا تحديدٍ ولا تجنيسٍ ولا تصويرٍ.

قلتُ: فهذا المنهجُ هو طريقةُ السَّلَف، وهو الذي أوضحه

(١) سورة الرحمن، الآية: ٢٧.

(٢) سورة ص، الآية: ٧٥.

أبو الحسن وأصحابُه، وهو التسليمُ لنُصُوص الكتاب والسُّنَّة، وبه قال ابن الباقلاني، وابن فُوْرَك، والكبارُ إلى زمن أبي المعالي، ثم زمن الشيخ أبي حامد، فوقع اختلافٌ وألْوانٌ، نسألُ اللهَ العَفْوَ»[١].

وقال: «قال ابنُ جَرير في كتاب «التبصير في معالم الدين»: القولُ فيما أُدْرِكَ علمُه من الصِّفات خَبَرًا، وذلك نحو إخباره تعالى أنَّه سميعٌ بَصِير، وأنَّ له يَدَيْن بقوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[٢]، وأنَّ لَهُ وَجْهًا بقوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾[٣] وأنَّه يَضْحَكُ بقوله في الحديث: «لَقِيَ اللهَ وَهُو يَضْحَكُ إِلَيْه»[٤]. و «أنَّه يَنْزلُ إلى سماء الدُّنْيا» لخبرِ رسوله بذلك[٥]، وقال عليه السَّلام: «ما

(١) السير (١٧/ ٥٥٨-٥٥٩).
(٢) سورة المائدة، الآية: ٦٤.
(٣) سورة الرحمن، الآية: ٢٧.
(٤) الحديث في «الصحيحين».
(٥) أخرج مالك في «الموطأ» ١/ ٢١٤، في القرآن: باب ما جاء في الدعاء، والبخاري ٣/ ٢٥-٢٦ في التهجد: باب الدعاء والصلاة من آخر الليل، و ١١/ ١١٠ في الدعوات: باب الدعاء نصف الليل، و ١٣/ ٣٨٩ في التوحيد: باب قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾، ومسلم (٧٥٨) في صلاة المسافرين: باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، والترمذي (٣٤٩٨)، وأبو داود (١٣١٥) كلهم من طريق ابن شهاب، عن أبي سلمة بن عبدالرحمن، وعن أبي عبدالله الأغرّ، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل ربُّنا ـ تبارك وتعالى ـ كلَّ ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: مَنْ يدعوني فأستجيب له، مَنْ يسألني فأعطيه، مَنْ يستغفرني فأغفر له؟».

مِنْ قَلْبٍ إلاَّ وَهُوَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمن»[١] . إلى أن قال: فإنَّ هذه المعاني التي وُصفت ونظائرها ممَّا وَصَفَ اللهُ نفسَهُ ورسولُه ما لا يَثْبُتُ حقيقةُ عِلمِهِ بالفِكر والرَّويَّة، لا نُكَفِّرُ بالجهل بها أحَدًا إلاَّ بعدَ انتهائِها إليه .

أَخبَرَنا أحمدُ بنُ هبةِ الله: أخبَرَنَا زَيْنُ الأُمَناء الحسنُ بن محمد، أخبرَنا أبو القاسم الأسدي، أخبَرَنا أبو سعيد الدِّيْنَوريُّ مُسْتَملي ابنِ جرير، أخبَرَنا أبو جعفرٍ محمدُ بنُ جَريرٍ الطَّبَريُّ بعقيدته، فمِنْ ذلك: وحسبُ امرئٍ أَنْ يَعلَمَ أَنَّ ربَّه هو الذي على العرش اسْتَوى، فمَنْ تجاوَزَ ذلك فقد خابَ وَخَسر .

وهذا «تفسير» هذا الإمام مشحونٌ في آياتِ الصِّفاتِ بأقوال السَّلَفِ على الإثبات لها، لا على النَّفي والتأويل، وأنَّها لا تُشْبِهُ صِفاتِ المَخْلوقِينَ أبدًا»[٢] .

وقال: «وورد عن إسحاق أن بعض المتكلمين، قال له: كفرتُ برب ينزل مِن سماءٍ إلى سماء. فقال: آمنتُ برب يفعل ما يشاء .

= وقد شرح هذا الحديث شيخُ الإسلام شرحًا مفصلاً في كتابه «حديث النزول» وهو مطبوع .

(١) أخرج الإمام أحمد في «مسنده» ٢/١٦٨، ومسلم في «صحيحه» (٢٦٥٤) من طريق عبدالله بن عمرو بن العاص، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد، يصرفه حيث يشاء» ثم قال ﷺ: «اللهم مصرِّف القلوب ثبِّت قلوبَنا على طاعتك» .

(٢) السير (١٤/ ٢٧٩-٢٨٠) .

قلتُ: هذه الصفات من الاستواء والإتيان والنزول، قد صحَّت بها النصوص، ونقلها الخلفُ عن السلف، ولم يتعَّرضوا لها، بردٍّ ولا تأويل، بل أنكروا على من تأولها مع إصفاقِهم[١] على أنها لا تُشبه نعوت المخلوقين، وأنَّ الله ليس كمثله شيءٌ، ولا تَنبغي المناظرة، ولا التنازع فيها، فإن في ذلك محاولةً للرد على الله ورسوله، أو حَوْمًا على التكييف أو التعطيل»[٢].

وقال: «أخبرنا أبو محمد بنُ عُلوان، أخبرنا عبدُالرحمن بن إبراهيم، أخبرنا عَبدالمُغيث بن زُهَيْر، حدثنا أحمدُ بن عُبَيد الله، حدثنا مُحمدُ بن علي العُشاري، أخبرنا أبو الحَسَن الدَّارقطني، أخبرنا مُحمدُ بن مَخْلد، أخبرنا العَبَّاسُ الدُّوري، سمعتُ أبا عُبَيدٍ القاسِمَ بنَ سلاَّم ـ وذكر البابَ الذي يُروى فيه الرؤية، والكرسي مَوضع القَدَمين[٣]، وضَحك ربُّنا، وأين كانَ ربُّنا[٤] ـ

---

(١) أي اتفاقهم.

(٢) السير (١١/ ٣٧٦).

(٣) رواه وكيع في «تفسيره»: حدثنا سفيان، عن عمار الدهني، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: «الكرسي موضع القدمين، والعرش لا يقدر أحد قدره» وأخرجه الحاكم في «المستدرك» ٢/ ٢٨٢ من طريق أبي العباس محمد ابن أحمد المحبوبي، حدثنا محمد بن معاذ، عن أبي عاصم، عن سفيان بهذا الإسناد، وصححه، ووافقه الذهبي، ولا صح مرفوعًا إلى النبي ﷺ كما حققه ابن كثير في «تفسيره» ١/ ٣٠٩ وغيره.

(٤) أخرجه أحمد ٤/ ١١ و ١٢، والترمذي (٣١٠٩) في تفسير سورة هود، وابن ماجه (١١٢) في المقدمة من طريق يزيد بن هارون، عن حماد بن سلمة، عن يعلى بن عطاء، =

فقال: هذه أحاديث صِحاح[١]، حَملها أصحابُ الحَديثِ والفُقَهاءُ بعضُهم عن بَعض، وهي عِندنا حقٌّ لا نشُكُّ فيها، ولكن إذا قيل: كيفَ يَضحكُ؟ وكيف وَضَع قَدَمَه؟ قُلنا: لا نُفَسِّرُ هذا، ولا سَمِعنا أحدًا يُفسِّره.

قلتُ: قد فَسَّر علماءُ السَّلف المُهِمَّ مِن الألفاظ وغيرَ المهم، وما أبْقَوْا مُمكنًا، وآياتُ الصِّفَات وأحاديثُها لم يتعرَّضوا لتأويلها أصلاً، وهي أهمُّ الدين، فلو كانَ تأويلُها سائِغًا أو حَتمًا، لبادروا إليه، فعُلِمَ قطعًا أنَّ قراءتها وإمرارَها على ما جاءت هو الحقُّ، لا تفسيرَ لَهَا غيرُ ذلك، فنُؤمنُ بذلك، ونَسكُتُ اقتداءً بالسَّلف، معتقدين أنها صفاتٌ للهِ تعالى، استأثَرَ اللهُ بعِلم حَقَائِقِها[٢]، وأنَّها لا تُشْبه صفاتِ المَخلوقين، كما أنَّ ذاتَه المُقَدَّسَة لا تُمَاثِلُ ذَوَاتِ المخلوقين، فالكتابُ والسنَّةُ نَطَقَ بها، والرَّسولُ ﷺ بَلَّغَ، وما تعرَّضَ لتأويلٍ، مع كونِ الباري قال: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ

= عن وكيع بن عدس، عن عمه أبي رزين قال: قلت: يا رسول الله، أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ قال: «كان في عماء، ما تحته هواء، وما فوقه هواء، وما ثم خلق، ثم خلق عرشه على الماء»، وهذا سند ضعيف لجهالة وكيع بن عدس، فإنه لم يوثقه غير ابن حبان على عادته في توثيق المجاهيل.

(١) لكن الصحة غير متحققة في حديث «الكرسي موضع القدمين» إنما هو ثابت عن ابن عباس ـ كما سبق ـ، وحديث «أين كان ربنا» ضعيف كما تقدم.

(٢) سيأتي الحديث ـ إن شاء الله ـ عن الموقف الحقيقي للذهبي من صفات الله: هل هو اختيار مذهب السلف أم مذهب أهل التفويض!؟

مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾[١]، فعلينا الإيمانُ والتَّسلمُ لِلنُّصوصِ، واللهُ يَهدِي مَن يشاءُ إلى صِرَاطٍ مُستقيم»[٢].

وقال: «قال ابنُ القاسم: سألتُ مالكًا عمَّن حدَّث بالحديثِ، الذي قالوا: «إنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلى صُورَتِهِ»[٣]. والحديث الذي جاء: «إن الله يكْشفُ عَنْ سَاقِهِ»[٤] «وأنَّه يُدْخِلُ يَده في

---

(١) سورة النحل، الآية: ٤٤.

(٢) السير (١٠/٥٠٥-٥٠٦).

(٣) أخرجه البخاري في «صحيحه» ١١/ ٢ في أول الاستئذان، ومسلم (٢٨٤١) في الجنة: باب يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير، وأحمد ٢/ ٣١٥، وابن خزيمة في «التوحيد» ٣٩، ٤٠ من طريق معمر، عن همام بن منبه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «خلق الله آدم على صورته، طوله ستون ذراعًا، فلما خلقه قال: اذهب، فسلم على أولئك نفر من الملائكة جلوس، فاستمع ما يحيونك، فإنها تحيتك وتحية ذريتك، فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله، فزادوه: «ورحمة الله» فكل من يدخل الجنة على صورة آدم، فلم يزل الخلق ينقص بعد حتى الآن»، وأخرجه مسلم (٢٦١٢) (١١٥)، وأحمد ٢/ ٤٦٣ و ٥١٩، وابن خزيمة ص ٣٧ من طريق قتادة، عن أبي أيوب المراغي، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قاتل أحدكم أخاه فليجتنب الوجه، فإن الله خلق آدم على صورته»، وأخرجه أحمد ٣/ ٢٤٤، والآجري في «الشريعة»: ٣٤١، والبيهقي في «الأسماء والصفات» ٢٩٠، من طريق سفيان، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة. . . وأخرجه أحمد ٢/ ٣٢٣ من طريق المغيرة بن عبدالرحمن، عن أبي الزناد، عن موسى بن أبي عثمان، عن أبيه، عن أبي هريرة. . وأخرجه أحمد ٢/ ٢٥١، و ٤٣٤، وابن خزيمة: ٣٦ من طريق يحيى، عن ابن عجلان، عن سعيد، عن أبي هريرة.

(٤) أخرجه البخاري ٨/ ٥٠٨ في التفسير من طريق سعيد بن أبي هلال، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول:=

جَهَنَّم حَتَّى يُخْرِجَ مَنْ أَرَادَ»[١] . فأنكر مالكٌ ذلك إنكارًا شديدًا، ونهى أن يُحدِّث بها أحد، فقيل له: إن ناسًا من أهل العلم يَتحدَّثون به، فقال: مَنْ هو؟ قيل: ابنُ عجلان عن أبي الزِّناد، قال: لم يكن ابنُ عجلان يَعرفُ هذه الأشياءَ، ولم يكن عالمًا. وذكر أبا الزِّناد، فقال: لم يَزل عاملاً لهؤلاء حتى مات. رواه مقدامُ الرُّعَيني، عن ابن أبي الغَمْر، والحارث بن مسكين، قالا: حدَّثنا ابن القاسم.

= «يكشف ربنا عن ساقه، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياءً وسمعة، فيذهب ليسجد، فيعود ظهره طبقًا واحدًا» وهو قطعة من حديث أبي سعيد المطول في رؤية الله في الآخرة والشفاعة، أخرجه البخاري في التوحيد ١٣/٣٥٨، ٣٦٠، وأخرجه مسلم (١٨٣) في الإيمان: باب معرفة طريق الرؤية، من طريق سويد بن سعيد، عن حفص بن ميسرة، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري، ولفظه عنده: «فيكشف عن ساقه» وهذه الرواية أصح لموافقتها لفظ القرآن كما قال الإسماعيلي، ونقله عنه الحافظ في «الفتح» ٨/ ٥٠٨، وأقره.

(١) قال محقق هذا الجزء من السير: لم أقف عليه بهذا اللفظ، وقد أخرج الآجري في «الشريعة» ص ٣٤٦، من طريق هناد بن السري، عن أبي معاوية، عن أبي إسحاق بن عبدالله، عن سعيد بن أبي سعيد، عن ابن عمر رضي الله عنه قال: لقد بلغت الشفاعة يوم القيامة حتى إن الله عز وجل ليقول للملائكة: أخرجوا برحمتي من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان، قال: ثم يخرجهم حفنات بيده بعد ذلك. وأخرج أحمد ٣/ ٩٤، ومسلم (١٨٣)، والآجري في الشريعة ص ٣٤٦ من حديث أبي سعيد الخدري المطوّل وفيه: «فيقول الله عز وجل: شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار، فيخرج منها قومًا لم يعملوا خيرًا قط...» وقد ورد ذكر اليد في غير ما حديث صحيح، أوردها البيهقي في «الأسماء والصفات» ٣١٤، ٣٢٣.

قلتُ: أنكرَ الإمامُ ذلك، لأنَّه لم يَثبتْ عنده، ولا اتَّصل به، فهو مَعْذور، كما أن صاحِبي «الصَّحيحَيْن» مَعْذروان في إخراج ذلك ـ أعني الحديثَ الأول والثاني ـ لثبوت سندهما، وأما الحديثُ الثالث، فلا أعرفه بهذا اللفظ، فقولُنا في ذلك وبابِه: الإقرار، والإمْرار، **وتفويضُ معناه إلى قائله الصادق المَعصوم**»[١].

وقال: «قال أبو عُبيد: ما أدركنا أحدًا يفسّر هذه الأحاديث[٢]، ونحن لا نفسِّرها.

قلت: قد صَنَّف أبو عُبيد كتاب «غريب الحديث» وما تعرَّض لأخبار الصفات الإلهية بتأويل أبدًا، ولا فسَّر منها شيئًا. وقد أخبر بأنه ما لَحِق أحدًا يُفَسِّرها، فلو كان واللهِ تفسيرُها سائغًا، أو حتمًا، لأوْشَكَ أن يكون اهتمامُهم بذلك فوقَ اهتمامهم بأحاديث الفروع والآداب. فلما لم يتعرضوا لها بتأويل، واقرُّوها على ما وردت عليه، عُلِمَ أن ذلك هو الحقُّ الذي لا حَيْدة عنه»[٣].

وقال: «أخبرنا أبو المعالي أحمد بن إسحاق بمصر: أنبأنا المبارك بن أبي الجود ببغداد، أنبأنا أحمد بن أبي غالب العابد،

(١) السير (٨/ ١٠٣-١٠٥).

(٢) أي أحاديث الصفات.

(٣) السير (٨/ ١٦٢).

أنبأنا عبدالعزيز بن علي، أنبأنا محمد بن عبدالرَّحمن الذَّهبي، حدَّثنا عبدالله البَغَوي، حدَّثنا عبدالأعلى بن حماد النَّرْسي، حدَّثنا حمَّاد بن سَلمة، عن ثابت، عن أبي رافع، عن أبي هُريرة: أن النَّبي ﷺ قال: «إِنَّ رَجُلاً زَارَ أَخًا لَهُ في قَرْيَةٍ أُخْرَى، فَأَرْصَدَ اللهُ عَلى مَدْرَجَته مَلَكًا، فَلَمَّا أَتى عَلَيْهِ، قَالَ: أَيْنَ تُرِيْدُ؟ قَالَ: أَرَدْتُ أَخًا لي فِي قَرْيَةِ كَذا وَكَذا. قَالَ: هَلْ لَهُ عَلَيْكَ مِنْ نَعْمَةٍ تَرُبُّهَا؟ قَالَ: لاَ، إلاَّ أَنِي أُحبُّهُ في الله. قَالَ: إِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكَ أَنَّ الله قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتُهُ فِيْهِ» أخرجه مسلم عن عبدالأعلى، فوافقناه بعلو، وهو من أحاديث الصفات التي تمر كما جاءت، وشاهده في القرآن وفي الحديث كثير، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[١]، وقال: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾[٢]»[٣].

وقال: «قال أبو جعفر العُقيلي في ترجمة عبدالله بن ذكوان: حدثنا مقدام بن داود، حدثنا الحارث بن مسكين، وابن أبي الغمر، قالا: حدثنا ابن القاسم قال: سألت مالكًا عمن يحدِّث بالحديث الذي قالوا: «إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ»[٤] فأنكر

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣١.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٢٥.

(٣) السير (٧/ ٤٥٤-٤٥٥).

(٤) أخرجه أحمد ٢/ ٢٤٤، والآجري في «الشريعة» ٣٤١، والبيهقي في «الأسماء والصفات» ٢٩٠ من طريق سفيان، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة.. =

ذلك إنكارًا شديدًا، ونهى أن يتحدَّث به أحد، فقيل: إن ناسًا من أهل العلم يتحدثون به. قال: من هم؟ قيل: ابنُ عجلان، عن أبي الزناد، فقال: لم يكن يعرف ابنُ عجلان هذه الأشياءَ، ولم يكن عالمًا، ولم يزل أبو الزناد عاملاً لهؤلاء حتى مات، وكان صاحب عُمَّال يتبعُهم.

قلت: الخبرُ لم ينفرد بن ابن عجلان، بل ولا أبو الزناد، فقد رواه شعيب بن أبي حمزة عن أبي الزناد، ورواه قتادة. عن أبي أيوب المراغي، عن أبي هريرة، ورواه ابنُ لَهيعة، عن الأعرج وأبي يونس، عن أبي هريرة، ورواه معمر، عن همَّام، عن أبي هريرة، وصحَّ أيضًا من حديث ابن عمر. وقد قال إسحاق بن راهوية عالمُ خراسان: صحَّ هذا عن رسول الله ﷺ.

= وأخرجه أحمد ٢/ ٣٢٣ من طريق المغيرة بن عبدالرحمن، عن أبي الزناد، عن موسى بن أبي عثمان، عن أبيه، عن أبي هريرة.. وأخرجه أحمد ٢/ ٢٥١ و ٤٣٤، وابن خزيمة ٣٦ عن طريق يحيى، عن ابن عجلان، عن سعيد، عن أبي هريرة.. وأخرجه البخاري ١١/ ٢، ٦، ومسلم (٢٨٤١)، وأحمد ٣/ ٣١٥، وابن خزيمة: ٣٩، ٤٠ من طريق معمر، عن همام بن منبه، عن أبي هريرة.. وأخرجه مسلم (٢٦١٢) (١١٥) وأحمد ٢/ ٤٦٣، و ٥١٩، وابن خزيمة: ٣٧ من طريق قتادة، عن أبي أيوب المراغي، عن أبي هريرة وحديث ابن عمر أخرجه الآجري: ١٣٥، والبيهقي ٢١٩، وابن خزيمة: ٣٨ من طريق الأعمش، عن حبيب بن أبي ثابت، عن عطاء، عن ابن عمر مرفوعًا بلفظ «لا تقبحوا الوجه، فإن ابن آدم خلق على صورة الرحمن» وقد أعل هذه الرواية ابن خزيمة بتدليس الأعمش وكذا حبيب، وبمخالفة الثوري الأعمش في إرساله.

فهذا الصحيح مخرج من كتابي البخاري ومسلم. فنؤمن به ونُفوِّضُ ونُسَلِّمُ ولا نخوضُ فيما لا يعنينا مع علمنا بأن الله ليس كمثله شيء وهو السميعُ البصير»(١).

وقال: «أنبأني أحمد بن سَلامة، عن حمَّاد الحَرَّاني أنه سَمِع السِّلَفي يُنْكِر على الحاكم في قوله: لا تجوزُ الرِّوايةُ عن ابن قُتَيْبَة. ويقولُ: ابن قُتَيْبَة من الثِّقات، وأَهْلِ السُّنَّة. ثم قال: لكن الحاكم قَصده لأجل المذْهَب.

قلتُ: عَهْدِي بالحاكم يَمِيْل إلى الكَرَّامية، ثُم ما رأيتُ لأبي محمَّد في كِتاب «مُشْكل الحديث» ما يخالفُ طَرِيقة المُثْبِتَة والحَنابِلَة، ومن أن أخبار الصِّفَات تُمَرُّ ولا تُتأوَّل، فالله أعلم.

وكان ابنُه أحمد حُفَظَةً، فَحَفِظَ مُصَنَّفات أبيه، وحدَّث بها بمصر لمَّا وَلي قضاءَها من حِفْظِه، واجتَمَع لِسَمَاعها الخَلْقُ سَنَةَ نيِّفٍ وعِشرين وثلاثِ مئة، وكانَ يقول: إنَّ والدَه أبا محمَّد لقَّنه إيَّاها.

وما أَحَسَن قول نُعَيْم بن حمَّاد، الَّذِي سَمِعْناه بأَصَحِّ إسْنادٍ عن محمَّد بن إسماعيل التِّرْمِذي، أنَّه سَمِعَه يقول: مَن شَبَّه الله بخلْقِه، فَقَدْ كَفَر، ومَنْ أنكر ما وَصَف الله به نَفْسَه، فقد كَفَر، وليسَ ما وَصَف به نَفْسَه ولا رَسُوله تشبيهًا.

---

(١) السير (٥/ ٤٤٩-٤٥٠).

قلتُ: أرادَ أن الصِّفَاتِ تابعةٌ للمَوْصُوف، فإذا كانَ الموصوفُ تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[١]، في ذاته المقدَّسَة، فكذلك صِفَاته لا مِثل لها، إذ لا فَرْقَ بين القَول في الذَّات والقَولِ في الصِّفات، وهذا هو مَذْهب السَّلَف»[٢].

وقال: «قال ابنُ عقيل في «الفنون»: الأصلحُ لاعتقاد العوامِّ ظواهر الآي، لأنهم يأنسُون بالإثبات، فمتى محونا ذلك مِن قلوبهم، زالتِ الحشمة.

قال: فتهافتُهم في التشبيه أحبُّ إلينا من إغراقهم في التنزيه، لأن التشبيه يغمسهم في الإثبات، فيخافون ويرجون، والتنزيهُ يرمي بهم إلى النفي، فلا طَمَعَ ولا مخافة في النفي، ومن تدبَّر الشريعة، رآها غامسة للمكلفين في التشبيه بالألفاظ الظاهرة التي لا يُعطي ظاهرها سواه، كقول الأعرابي: أو يضحكُ ربُّنا؟ قال النبي ﷺ: نعم[٣]، فلم يكفهرَّ لِقوله، تركه وما وقع له.

قلت: قد صار الظَّاهِرُ اليوم ظَاهِرَيْنِ: أحدُهما حق، والثاني باطل، فالحق أن يقول: إنَّه سميع بصير، مريدٌ متكلم، حيٌّ عليم، كل شيء هالك إلا وجهَه، خلق آدمَ بيده، وكلَّم موسى تكليمًا، واتخذ إبراهيم خليلاً، وأمثال ذلك، فنُمِرُّه على ما جاء،

---

(١) سورة الشورى، الآية: ١١.

(٢) السير (١٣/ ٢٩٩-٣٠٠).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ١١)، وابن ماجه (١٨١).

ونفهم منه دلالة الخطابِ كما يليق به تعالى، ولا نقولُ: له تأويلٌ يُخالِفُ ذَلك.

والظاهر الآخر وهو الباطل والضلال: أن تعتقِدَ قياس الغائب على الشاهد، وتُمثِّلَ البارئَ بخلقه، تعالى الله عن ذلك، بل صفاتُه كذاته، فلا عِدْل له، ولا ضِدَّ له، ولا نظيرَ له، ولا مِثْل له، ولا شبيهَ له، وليس كمثله شيء، لا في ذاته، ولا في صفاته، وهذا أمرٌ يستوِي فيه الفقيهُ والعاميُّ، والله أعلم»[١].

وقال: «يكفي المسلمَ في الإيمان أن يؤمنَ بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والقدر خير وشرِّه، والبعثِ بعد الموت، وأنَّ الله ليس كمثله شيء أصلاً، وأنَّ ما ورد من صفاته المقدَّسة حقٌّ، يُمرُّ كما جاء، وأن القرآن كلامُ الله وتنزيله، وأنه غيرُ مخلوق، إلى أمثال ذلك مما أجمعت عليه الأمة، ولا عبرة بمن شذَّ منهم، فإن اختلفتِ الأمةُ في شيء، من مُشْكِل أصولِ دينهم، لزمنا فيه الصمت، وفوَّضْنَاه إلى الله، وقلنا: الله ورسولُه أعلم، وَوَسِعَنَا فيه السكوتُ»[٢].

وقال بأنَّ: «كمال التنزيه تعظيم الربِّ عز وجل، ونعته بما وصف به نفسه تعالى»[٣].

(١) السير (١٩/ ٤٤٨-٤٤٩).

(٢) سير أعلام النبلاء: ١٩/ ٣٤٦.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٢١/ ٤٦٥، تذكرة الحفاظ: ٣/ ١١٧٨.

وقال عن صفات الله: «نؤمن بها، ونعقل وجودها، ونعلمها في الجملة، من غير أن نتعقلها أو نشبِّهها أو نكيِّفها أو نمثّلها بصفات خلقه، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا»[١].

ويزيد الأمر توضيحًا فيقول: «إنَّ مَنْ تأوَّل سائرَ الصفاتِ، وحملَ ما وردَ منها على مجازِ الكلام؛ أدّاه ذلك السلب إلى تعطيل الربِّ، وأن يشابه المعدوم، كما نُقل عن حماد بن زيد أنه قال: مَثَلُ الجَهْمِيَّة كقوم قالوا: في دارنا نخلة، قيل: لها سَعَفٌ؟ قالوا: لا، قيل: فلها كَرَبٌ[٢]؟ قالوا: لا، قيل: لها رطب وقِنْو[٣]؟ قالوا: لا، قيل: فلها ساق؟ قالوا: لا، قيل: فما في داركم نخلة.

قلت[٤]: كذلك هؤلاء النُّفاة قالوا: إلهنا الله تعالى، وهو لا في زمانٍ ولا في مكانٍ، ولا يُرى، ولا يَسمع، ولا يُبصر، ولا يتكلم، ولا يرضى، ولا يغضب، ولا يُريد، ولا، ولا... وقالوا: سبحان المنزّه عن الصفات!

بل نقولُ: سبحانَ الله العلي العظيم، السميع البصير، المريد، الذي كلَّم موسَى تكليمًا، واتَّخَذَ إبراهيم خليلاً، ويُرى في

(١) مختصر العلو: ٨٠.
(٢) الكَرَب: الأصل العريض للسَّعَف إذا يَبِسَ. والسَّعَف: جريد النخل وورقه.
(٣) القِنْوُ: العِذْق بما فيه من الرُّطَب.
(٤) القائل هو الذهبي.

الآخرة، المتَّصف بما وصفَ به نفسَه، ووصفَه به رسلُه، المنزَّه عن سماتِ المخلوقين، وعن جحد الجاحدين، ليس كمثلهِ شيءٌ وهو السميع البصير»[(١)] .

وقال: «قد فسَّرَ علماءُ السلف المُهِمَّ من الألفاظ وغيرَ المهم، وما أبْقَوْا ممكنًا، وآياتُ الصفات وأحاديثُها لم يتعرَّضوا لتأويلها أصلاً، وهي أهمُّ الدين، فلو كان تأويلُها سائغًا أو حَتْمًا، لبادروا إليه، فعُلِمَ قطعًا أن قراءتها وإمرارها على ما جاءت هو الحقُّ، لا تفسير لها غيرُ ذلك، فنؤمن بذلك ونسكتُ اقتداءً بالسلف، معتقدين أنها صفاتٌ لله تعالى، استأثر الله **بعِلْم حقائقها**، وأنها لا تشبه صفاتِ المخلوقين، كما أن ذاته المقدَّسة لا تماثل ذوات المخلوقين، فالكتاب والسنة نطق بها، والرسول ﷺ بَلغ، وما تعرض لتأويل، مع كون الباري قال: ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾[(٢)]، فَعَلينا الإيمانُ والتسليمُ للنصوص، والله يهدي من يشاءُ إلى صراطٍ مستقيم»[(٣)] .

وقال: «وإذا كان المخالف لا يهتدي بمن ذكرنا أنه يقولُ: الإجماع على إثباتها من غير تأويلها، أو لا يصدِّقه في نَقْلِهِ، فلا هَداهُ الله. ولا خيرَ ـ والله ـ فيمن رَدَّ على مثل الزُّهري، ومكحول،

(١) مختصر العلو: ٢٦٩ .
(٢) سورة النحل، الآية: ٤٤ .
(٣) سير أعلام النبلاء: ١٠/ ٥٠٦ .

والأوزاعي، والثوري، والليث بن سعد، ومالك، وابن عُيينة، وابن المبارك، ومحمد بن الحسن، والشافعي، والحميدي، وأبي عُبيد، وأحمد بن حنبل، وأبي عيسى الترمذي، وابن سُرَيج، وابن جرير الطبري، وابن خُزيمة، وزكريا الساجي، وأبي الحسن الأشعري، أو يقول مثل قولهم من الإجماع مثل الخطَّابي، وأبي بكر الإسماعيلي، وأبي القاسم الطبراني، وأبي أحمد العَسَّال.. والشيخ عبدالقادر الجِيلي - الإمام في كل عصر - الذين هم قلب اللّب ونقاؤه»[١].

وقال: «ومما يدل على أن الباري تبارك وتعالى عالٍ على الأشياء فوق عرشه المجيد، غير حالٍّ في الأمكنة، قولُه تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾[٢]، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾[٣]، وقوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾[٤]، وقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾[٥].

وقد أمرنا نبيُّنا ﷺ أن نقولَ إذا سجدنا: «سبحانَ ربِّي الأعْلى»،

---

(١) الأربعين في صفات رب العالمين (ص ٩٥-١٠٣).
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.
(٣) سورة سبأ، الآية: ٢٣.
(٤) سورة الرعد، الآية: ٩.
(٥) سورة الأعلى، الآية: ١.

وقد قال تعالى في وصفِ الشهداء: ﴿أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[١]، وقالت: امرأة فرعون: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾[٢]»[٣].

وقال: «وقولُ عموم أمة محمد ﷺ: إنَّ الله في السماء، يُطْلِقون ذلك وفق ما جاءت به النصوص بإطلاقه، ولا يخوضون في تأويلات المتكلمين، مع جَزْمِ الكلّ بأنه تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[٤]»[٥].

ونقل كلمة عثمان بن سعيد الدَّارِميّ: «اتفقتِ الكلمةُ من المسلمين أن الله تعالى فوق عرشه، فوق سماواته»، ثم قال: «قلتُ: أوضح شيء في هذا الباب قولُه عز وجل: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[٦]، فَلْيُمَر كما جاء، كما هو معلوم من مذهب السلف، ويُنهى الشخصُ عن المراقبة والجدال، وتأويلاتِ المُعتزلة ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾[٧]»[٨].

وقال: «ومسألةُ النزول: فالإيمانُ به واجبٌ، وترْكُ الخوض

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٩.
(٢) سورة التحريم، الآية: ١١.
(٣) مختصر العلو: ١٢١-١٢٢.
(٤) سورة الشورى، الآية: ١١.
(٥) سير أعلام النبلاء: ١١/ ٧٠-٧١.
(٦) سورة طه، الآية: ٥.
(٧) سورة آل عمران، الآية: ٥٣.
(٨) سير أعلام النبلاء: ١٣/ ٣٢٥، وانظر: ١١/ ٣٧٦.

في لوازمه أولى، وهو سبيلُ السَّلَف. . . وكذا قوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾[١] ونحوُه، فنقولُ: جاءَ، وينزلُ، ونَنهى عن القول: ينزلُ بذاته، كما لا نقول: ينزلُ بعلْمِهِ، بل نسكتُ ولا نتفاصحُ على الرسولِ ﷺ بعباراتٍ مبتَدعة. والله أعلم»[٢].

وقال: «النزول والكلام والسمع والبصر والعلم والاستواء عبارات جلية واضحة للسامع، فإذا اتصف بها من ليس كمثله شيء، فالصفة تابعة للموصوف، وكيفية ذلك مجهولة عند البشر»[٣].

وقال: «قول أهل السنَّة قاطبة أن كيفية الاستواء لا نعقلها، بل نجهلها، **وأن استواءَه معلومٌ كما أخبر في كتابه، وأنه كما يليق به**، لا نتعمَّقُ ولا نتحذلق، ولا نخوض في لوازم ذلك نفيًا ولا إثباتًا، بل نسكتُ ونقف كما وقف السلفُ، ونعلَمُ أنه لو كان له تأويلٌ لبادرَ إلى بيانه الصحابةُ، والتابعون، ولما وَسِعَهُم إقرارُه وإمرارُه، والسكوت عنه، ونعلمُ يقينًا مع ذلك أن الله جل جلاله لا مِثْلَ له في صفاته، ولا في استوائه، ولا في نزوله، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمين علوًا كبيرًا»[٤].

---

(١) سورة الفجر، الآية: ٢٢.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٢٠/ ٣٣١.

(٣) مختصر العلو: ٢٣١.

(٤) مختصر العلو: ١٤١-١٤٢. وقد أكثر الذهبي النقول في هذه المسائل عن أئمة =

وقال في صفة العلو: «... سمعت علي بن الحسن بن شقيق يقول: قلت لعبدالله بن المبارك: كيف يعرفُ ربُّنا عز وجل؟ قال: في السماء على العرش. قلتُ له: إن الجَهْمية تقول هذا. قال: لا نقول كما قالت الجهمية: هو معنا هاهنا.

قلت: الجهمية يقولون: إن الباري تعالى في كلِّ مكان، والسلف يقولون: إن علم الباري في كُلِّ مكان، ويحتجُّون بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[1] يعني: بالعلم، ويقولون: إنَّه على عرشه استوى، كما نطق به القرآن والسنة.

وقال الأوزاعيُّ، وهو إمام وقته: كنا ـ والتابعون متوافرون ـ نقول: إن الله تعالى فَوقَ عرشه، ونُؤمِنُ بما وردت به السنَّة من صِفاته، ومعلوم عند أهل العلم من الطوائف أن مذهبَ السلف إمرارُ آياتِ الصِّفات وأحاديثها كما جاءت مِن غير تأويل ولا تحريف، ولا تشبيه ولا تكييف، فإن الكلام في الصفات فرعٌ على الكلام في الذاتِ المقدسة. وقد عَلِمَ المسلمون أن ذاتَ الباري موجودةٌ حقيقة، لا مِثْلَ لها، وكذلك صفاتُه تعالى موجودة، لا مِثْل لها»[2].

ونقل قول الإمامين أبي حاتم وأبي زرعة ـ مؤيدًا له ـ: «أدركنا

= السلف رضي الله عنهم.

(١) سورة الحديد، الآية: ٤.

(٢) السير (٨/ ٤٠٢).

العلماء في جميع الأمصار، فكان من مذهبهم أن الله على عرشه بائن من خلقه، كما وصف نفسه بلا كيف، أحاط بكل شيء علمًا»[١].

ونقل قول القيراوني: «وأطلقوا[٢] في بعض الأماكن أنه فوق عرشه. وهذا هو الصحيح الذي أقول به من غير تحديد، ولا تمكُّن في مكان، ولا كون فيه ولا مماسَّة»، ثم قال: «قلتُ: سلبُ هذه الأشياء وإثباتُها مداره على النقل، فلو وَرَدَ شيء بذلك نطقنا به، وإلا فالسكوتُ والكفُّ أشبه بشمائل السلف، إذْ التعرُّضُ لذلك نوعُ من الكَيْفِ وهو مجهول، وكذلك نعوذ بالله أن نثبتَ استواءه بمماسَّةٍ أو تمكُّن بلا توقيف ولا أثر، بل نعلمُ من حيثُ الجملة أنه فوق عرشه كما ورد النّص»[٣].

وذكر قول الإمام المحدث أبي أحمد القصاب: «. . . وخَلَقَ العرشَ لا لحاجة إليه، فاستوى عليه استواء استقرار كيف شاء وأراد، لا استقرار راحة كما يستريح الخلق»، ثم عقب عليه قائلاً: «قلتُ: ليته حذف «استواء استقرار»[٤] وما بعده، فإن

---

(١) السير (١٣/ ٨٤).

(٢) أي جماعة شيوخ الحديث والفقه.

(٣) مختصر العلو (٢٧٩).

(٤) لا مانع من قول «استواء استقرار» لأنه تفسير للاستواء بمعناه اللغوي الصحيح، وفيه رد على من تأوله. وفي هذا يقول ابن القيم في النونية (١/ ٢١٥ هراس) في معاني الاستواء عند السلف:

ذلك لا فائدة فيه بوجه، والباري منزه عن الراحة والتعب». ثم قال القصاب: «ولا يُوصف إلا بما وصف به نفسه، أو وَصَفَهُ به نبيُّه، فهي صفةٌ حقيقة لا مجازًا». فقال الذهبي: «قلتُ: وكان أيضًا يَسَعُهُ السكوتُ عن «صفة حقيقة»، فإننا إذا أثبتنا نعوتَ الباري وقلنا: تُمَرّ كما جاءت، فقد آمنا بأنها صفات، فإذا قلنا بعد ذلك: صفة حقيقة وليس بمجاز؛ كان هذا كلامًا ركيكًا نبطيًا مغلثًا للنفوس، فلْيُهْدَرْ»[1].

* وأنكر ـ رحمه الله ـ صفة (الجنب) لله، حيث قال في ترجمة الطلمنكي: «رأيت له كتابًا في السنة في مجلدين، عامته جيد، وفي بعض تبويبه ما لا يُوافق عليه أبدًا مثل: باب الجنب لله، وذكر فيه: ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾[2] فهذه زلة عالم»[3].

قلت: أصاب الذهبي في قوله هذا، لأن هذه الآية ليست

= «فلهم عبارات عليها أربع — قد حصلت للفارس الطعان
وهي استقر وقد علا وكذلك ار — تفع الذي ما فيه من نكران
وكذاك قد صعد الذي هو رابع — وأبو عبيدة صاحب الشيباني
يختار هذا القول في تفسيره — أدرى من الجهمي بالقرآن»

وانظر: «أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» للالكائي (٢/٢١٦-٣/٣٨٧)، و «دقائق التفسير» لابن تيمية (٥/ ٢٣٧-٢٤٤، ٦/ ٤٣٦-٤٣٩).

(١) مختصر العلو (٢٥٩-٢٦٠).

(٢) سورة الزمر، الآية: ٥٦.

(٣) السير (١٧/ ٥٦٩).

من آيات الصفات كما بينه العلماء الثقات .

قال ابن جرير عند تفسير هذه الآية : «وقوله : ﴿ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ ؛ يقول : على ما ضيعت من العمل بما أمرني الله به ، وقصرت في الدنيا في طاعة الله» .

وقال الدارمي في «رده على المريسي»[١] : «وادعى المعارض أيضاً زوراً على قوم أنهم يقولون في تفسير قول الله : ﴿ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ ؛ قال : يعنون بذلك الجنب الذي هو العضو ، وليس على ما يتوهمونه .

فيقال لهذا المعارض : ما أرخص الكذب عندك ! وأخفه على لسانك ! فإن كنت صادقاً في دعواك ؛ فأشر بها إلى أحد من بني آدم قاله ، وإلا ؛ فلم تشنع بالكذب على قوم هم أعلم بهذا التفسير منك ، وأبصر بتأويل كتاب الله منك ومن إمامك ؟ !

إنما تفسيرها عندهم : تحسر الكفار على ما فرطوا في الإيمان والفضائل التي تدعو إلى ذات الله تعالى ، واختاروا عليها الكفر والسخرية بأولياء الله ، فسماهم الساخرين ، فهذا تفسير (الجنب) عندهم ، فمن أنبأك أنهم قالوا : جنب من الجنوب ؟ ! فإنه لا يجهل هذا المعنى كثير من عوام المسلمين ، فضلاً عن علمائهم» .

---

(١) ص ١٨٤ .

ويقول شيخ الإسلام في «الجواب الصحيح»[١]: «. . . لا يُعرف عالم مشهور عند المسلمين، ولا طائفة مشهورة من طوائف المسلمين، أثبتوا لله جنباً نظير جنب الإنسان، وهذا اللفظ جاء في القرآن في قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾[٢]؛ فليس في مجرد الإضافة ما يستلزم أن يكون المضاف إلى الله صفة له، بل قد يضاف إليه من الأعيان المخلوقة وصفاتها القائمة بها ما ليس بصفة له باتفاق الخلق؛ كقوله تعالى: (بَيْت اللهِ)، و ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾، و ﴿عِبَادَ ٱللَّهِ﴾، بل وكذلك ﴿رُوحِ ٱللَّهِ﴾ عند سلف المسلمين وأئمتهم وجمهورهم، ولكن؛ إذا أضيف إليه ما هو صفةله وليس بصفة لغيره؛ مثل كلام الله، وعلم الله، ويد الله، ونحو ذلك؛ كان صفة له.

وفي القرآن ما يبين أنه ليس المراد بالجنب ما هو نظير جنب الإنسان؛ فإنه قال: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾، والتفريط ليس في شيء من صفات الله عز وجل، والإنسان إذا قال: فلان قد فرَّط في جَنْبِ فلان أو جانبه؛ لا يريد به أن التفريط وقع في شيء من نفس ذلك الشخص، بل يريد به أنه فرط في جهته وفي حقه.

فإذا كان هذا اللفظ إذا أضيف إلى المخلوق لا يكون ظاهره

(١) (٣/ ١٤٥-١٤٦).

(٢) سورة الزمر، الآية: ٥٦.

أن التفريط لم يلاصقه؛ فكيف يظن أن ظاهره في حق الله أن التفريط كان في ذاته؟!».

ويقول ابن القيم في «الصواعق المرسلة»[١] : «. . . فهذا إخبار عما تقوله هذه النفس الموصوفة بما وصفت به، وعامة هذه النفوس لا تعلم أن لله جنباً، ولا تقر بذلك؛ كما هو الموجود منها في الدنيا؛ فكيف يكون ظاهر القرآن أن الله أخبر عنهم بذلك، وقد قال عنهم: ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾، والتفريط فعل أو ترك فعل، وهذا لا يكون قائماً بذات الله؛ لا في جنب ولا في غيره، بل يكون منفصلاً عن الله، وهذا معلوم بالحس والمشاهدة، وظاهر القرآن يدل على أن قول القائل: ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾؛ ليس أنه جعل فعله أو تركه في جنب يكون من صفات الله وأبعاضه». وانظر «صفات الله الواردة في الكتاب والسنة» للشيخ علوي السقاف ـ حفظه الله ـ.

* وقال الذهبي في مسألة «الحد»: «الصواب الكف عن اطلاق ذلك، إذ لم يأت فيه نص، ولو فرضنا أن المعنى صحيح فليس لنا أن نتفوه بشيء لم يأذن به الله، خوفًا من أن يدخل القلب شيء من البدعة، اللهم احفظ علينا إيماننا»[٢].

---

(١) (١/٢٥٠).

(٢) السير (٢٠/٨٦).

وذكر في ترجمة ابن حبان عن يحيى بن عمار قال: «نحن أخرجناه من سِجِسْتَان: كان له علم ولم يكن له كبير دين، قدمَ علينا فأنكر الحدَّ لله فأخرجناه»! ثم عقب الذهبي قائلاً: «كلاهما مخطِئٌ، إذ لم يأتِ نصٌّ بإثبات الحد ولا بنفيه، ومن حُسْنِ إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»[1].

قلت: الحد من الألفاظ المجملة التي قد يراد بها معنى صحيحاً، وقد يراد بها معنى باطلاً، فكان الواجب على الذهبي عدم نفيه حتى يعلم ما المقصود منه. فالجهمية يقولون: «ليس لله حد» ومرادهم أنه ليس مبايناً للمخلوقات، وليس فوق العالم. وهذا قول باطل.

ومن أثبته من السلف (كالدارمي وابن المبارك) قصد به أن الله له حد متميز به عن المخلوقات ومباين لها غير مختلط بها. وهذا قولٌ حق. انظر: «مختصر الصواعق» (١/ ١٧٣)، و «شرح الطحاوية» (١/ ٢٦٣).

* ويرى أن من الأفضل عدم التحدث بأحاديث الصفات التي لم تثبت. وكذا ما قد يثير فتنة.

قال ـ رحمه الله ـ: «قال أبو الحسن عبدُالملك الميموني: قالَ رجلٌ لأبي عبدالله: ذهبتُ إلى خَلفٍ البَزّار أَعِظهُ، بَلغني

(١) تذكرة الحفاظ (٣/ ٩٢١)، وانظر: ميزان الاعتدال (٣/ ٥٠٧)، والسير (١٦/ ٩٧-٩٨).

أنَّه حدَّث بحديثٍ عن الأحْوص عن عبدالله قال: «ما خَلَق الله شيئًا أعظم . . » وذكر الحديث، فقال أبو عَبدالله: ما كان يَنبغي له أن يُحدِّث بهذا في هذه الأيام ـ يُريد زمنَ المِحنة ـ والمتنُ: «ما خَلَق اللهُ من سَماءٍ ولا أرْضٍ أعظَم من آيَةِ الكُرْسي»[١] وقد قال أحمدُ بن حَنبل لما أوردوا عليه هذا يومَ المِحنة: إنَّ الخَلق واقعٌ هاهُنا على السَّماء والأرضِ وهذه الأشياء، لا على القُرآن.

قلتُ: كذا يَنبغي لِلمُحدِّث أن لا يُشهِرَ الأحاديثَ التي يَتشبَّثُ بِظاهِرِها أعداءُ السُّنَن من الجَهْميَّة، . . . ، وأهلِ الأهْواء، والأحاديثَ التي فيها صِفاتٌ لم تثبت، فإنَّكَ لن تُحدِّث قومًا بحديثٍ لا تبلغُهُ عُقولهم، إلا كانَ فِتنةً لِبعضهم[٢]، فلا تَكْتُم العِلم الذي هو عِلمٌ، ولا تَبْذُلْهُ لِلجَهَلةِ الذين يَشْغَبُونَ عَليك، أو الذين يَفْهمون منه ما يَضُرُّهُم»[٣].

وقال: «محمد بن راشد، عن مكْحُول، قال: كان أبو هريرة يقول: رُبَّ كِيسٍ عند أبي هريرة لم يَفتحه. يعني: من العلم[٤].

قلت: هذا دالٌّ على جواز كتمان بعض الأحاديث التي تُحرك فتنةً في الأصول، أو الفروع؛ أو المدح والذم؛ أما حديثٌ

(١) انظر: «الدر المنثور» (١/ ٣٢٣).
(٢) أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه (١/ ١١).
(٣) السير (١٠/ ٥٧٨).
(٤) تاريخ دمشق ١٩/ ١١٦/ ٢.

يتعلق بحلٍّ أو حرام، فلا يحل كتمانُه بوجه؛ فإنه من البيناتِ والهدى. وفي «صحيح البخاري»: قول الإمام علي رضي الله عنه: حَدِّثوا النَّاسَ بما يَعرفون، ودعوا ما يُنكرون؛ أَتُحِبُّون أن يُكذبَ اللهُ ورسوله[1]! وكذا لو بثَّ أبو هريرة ذلك الوعاء، لأُوذي، بل لقُتِلَ. ولكن العالم قد يُؤديه اجتهادُه إلى أن يَنشُرَ الحديث الفلاني إحياءً للسنة، فله ما نوى وله أجر ـ وإن غلط في اجتهاده»[2].

* ويرى الذهبي عدم تكفير من أنكر أحاديث الصفات أو تأولها، أو ردها بعد العلم بها.

قال ـ رحمه الله ـ: «قال الحاكم: سمعت محمد بن صالح ابن هانئ، سمعتُ ابن خُزيمة يقول: مَن لم يُقرَّ بأنَّ الله على عرشه قد استوى فوقَ سبعِ سماواته فهو كافرٌ حلالُ الدَّم، وكان ماله فَيْئًا.

قلت: مَن أقرَّ بذلك تصديقًا لكتاب الله، ولأحاديث رسول الله ﷺ، **وآمَن به مفوِّضًا معناه إلى الله ورسوله**، ولم يخُض في

(١) أخرجه البخاري ١/ ١٩٩ في العلم: باب من خص العلم قومًا دون قوم كراهية ألا يفهموا، دون قوله: «ودعوا ما ينكرون» وهي عند آدم بن أبي إياس في كتاب العلم له. قال الحافظ في «الفتح»: وفيه دليل على أن المتشابه لا ينبغي أن يذكر عند العامة، ومثله قول ابن مسعود: ما أنت محدثًا قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة. رواه مسلم في مقدمة صحيحه ١/ ١١.

(٢) السير (٢/ ٥٩٧-٥٩٨).

التأويل ولا عمَّق، فهو المسلم المتَّبع، ومن أنكر ذلك، فلم يدرِ بثبوت ذلك في الكتاب والسنة فهو مقصِّرٌ، والله يعفو عنه، إذ لم يوجب اللهُ على كلِّ مسلم حفظَ ما ورد في ذلك، ومَن أنكر ذلك بعد العلم، وقَفَا غيرَ سبيل السَّلف الصَّالح، وتمعقل على النَّص، فأمرُه إلى الله، نعوذ بالله من الضَّلال والهوى.

وكلام ابن خُزيمة هذا ـ وإن كان حقًّا فهو فَج، لا تحتملُهُ نفوسُ كثيرٍ من متأخري العلماء»[١].

وقال ـ رحمه الله ـ: «قال أبو الوليد حسَّان بن محمد الفقيه: سمعتُ ابن خُزَيمة يقول: القرآن كلام الله تعالى، ومَن قال: إنَّه مخلوق، فهو كافر، يُسْتَتَاب، فإنْ تابَ وإلاَّ قُتل، ولا يُدفن في مقابر المسلمين.

ولابن خُزيمة عظمةٌ في النُّفوس، وجلالةٌ في القلوب لعلمه ودِينه، واتِّباعِهِ السُّنَّة.

وكتابُهُ في «التَّوحيد» مجلدٌ كبير، وقد تأوَّل في ذلك حديث الصُّورة[٢].

---

(١) السير (١٤/ ٣٧٣-٣٧٤).

(٢) حديث الصورة، أخرجه البخاري في «صحيحه» ١١/ ٢ في أول الاستئذان، ومسلم (٢٨٤١) في الجنة: باب يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير، وأحمد: ٢/ ٣١٥، وابن خزيمة في «التوحيد» ٣٩-٤٠ من طريق معمر، عن همام بن منبه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «خلق الله آدم على صورته، طوله ستون ذراعًا، =

= فلما خلقه، قال اذهب، فسلّم على أولئك ـ نفر من الملائكة جلوس ـ فاستمع ما يحيّونك، فإنها تحيتك وتحية ذريتك، فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلاك عليك ورحمة الله. فزاده: «ورحمة الله» فكل من يدخل الجنة على صورة آدم، فلم يزل الخلق ينقص بعد حتى الآن».

وأخرجه مسلم (٢٦١٢) (١١٥) وأحمد: ٢/ ٤٧٣ و ٥١٩، وابن خزيمة ص ٣٧ من طريق قتادة، عن أبي أيوب المراغي، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قاتل أحدكم أخاه فليجتنب الوجه، فإن الله خلق آدم على صورته».

وأخرجه أحمد: ٢/ ٢٤٤، والآجري في «الشريعة» ١٤٣، والبيهقي في «الأسماء والصفات» ٢٩٠ من طريق سفيان، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة...

وأخرجه أحمد: ٢/ ٣٢٣ من طريق المغيرة بن عبدالرحمن، عن أبي الزناد، عن موسى بن أبي عثمان، عن أبيه، عن أبي هريرة... وأخرجه أحمد: ٢/ ٢٥١، ٤٣٤، وابن خزيمة ٣٦ من طريق يحيى، عن ابن عجلان، عن سعيد، عن أبي هريرة.

وأخرج البخاري في «الأدب المفرد» رقم (١٧٣) وابن خزيمة ص ٣٦ من حديث ابن عجلان، عن سعيد، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إذا ضرب أحدكم فليجتنب الوجه، ولا يقل: قَبَّح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك، فإن الله خلق آدم على صورته».

قال ابن خزيمة بعد أن أورد هذه الأحاديث: «توهم بعض مَن لم يتحرَّ العلم أن قوله: «على صورته» يريد صورة الرحمن، عزَّ ربُّنا وجلَّ عن أن يكون هذا معنى الخبر، بل معنى قوله: خلق آدم على صورته: الهاء في هذا الموضع كناية عن اسم المضروب والمشتوم. أراد ﷺ أن الله خلق آدم على صورة هذا المضروب الذي أُمر الضارب باجتناب وجهه بالضرب، والذي قُبِّح وجهه، فزجر ﷺ أن يقول: ووجه من أشبه وجهك، لأن وجه آدم شبيه وجه بنيه. فإذا قال الشاتم لبعض بني آدم: قَبَّح الله وجهك ووجه مَن أشبه وجهك، كان مقبِّحًا وجه آدم صلوات الله وسلامه عليه».

قلت: أخطأ الإمام ابن خزيمة ـ رحمه الله ـ في تأويل هذا الحديث، وكان الأحرى به أن يُمره كما ورد شأنه شأن غيره من أحاديث الصفات الأخرى.

قال الإمام ابن قتيبة: «والذي عندي ـ والله تعالى أعلم ـ أن الصورة ليست بأعجب من اليدين، والأصابع، والعين، وإنما وقع الإلف لتلك لمجيئها في القرآن، ووقعت

فَلْيَعْذُرْ مَن تأوَّل بعضَ الصِّفات. وأمّا السَّلَف، فما خاضوا في التّأويل، بل آمنوا وكفُّوا، **وفوَّضوا علم ذلك إلى اللهِ ورسوله**، ولو أنَّ كلَّ مَن أخطأَ في اجتهاده ـ مع صحَّة إيمانه، وتوخِّيه لاتِّباع الحقّ ـ أَهدرناه، لقلَّ مَنْ يَسْلَم من الأئِمَّة معنا. رحم الله الجميعَ بِمَنِّهِ وكَرَمِهِ»[1].

□ تعـــليق:

تبين ـ بمَا سبق نقله ـ أن الإمام الذهبي أحد الأئمة الذين ينهون بشدة عن تأويلات الخَلَف في صفات الله تعالى. ويأمر بأن تُمر هذه الصفات كما جاءت، ويؤمن بها دون تأويل أو نفي لمعانيها.

ولكن يبقى بعد هذا: هل كان الذهبي بصنيعه هذا يقول بقول المفوضة[2] من الذين يؤمنون بصفات الله ـ عز وجل ـ دون علمٍ بمعانيها، فهي عندهم كالكلام الأعجمي الذي لا يُفْهم، وهذا ما يسميه شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ مذهب «أهل التجهيل»[3]

= الوحشة من هذه لأنها لم تأت في القرآن، ونحن نؤمن بالجميع، ولا نقول في شيء منه بكيفية ولا حد» (تأويل مختلف الحديث ص ٢٢١). وانظر: «عقيدة أهل الإيمان في خلق آدم على صورة الرحمن» للشيخ حمود التويجري ـ رحمه الله ـ.

(١) السير (١٤/ ٣٧٣-٣٧٦).

(٢) انظر في التعريف بهم تفصيلاً رسالة «مذهب أهل التفويض» للشيخ أحمد القاضي.

(٣) كما في «الفتوى الحموية الكبرى» (ص ٢٨٩) تحقيق: الشيخ حمد التويجري.

لأنهم جهلوا معاني صفات الله، وآمنوا بمجرد ألفاظها. وهذا المذهب شر المذاهب كما بين ذلك العلماء، لأنه اتهام للسلف من الصحابة والتابعين بأنهم جهلة لا يدرون معنى ما خوطبوا به. بل هو افتراء على الله ـ عز وجل ـ وعلى رسوله ﷺ بأنهما يأمران العباد بالإيمان بألفاظ لا تحمل أيَّ معنى، وهذا من العبث الذي ينزه عنه فعل الله وفعل رسوله ﷺ.

هل كان الذهبي يؤمن بهذا المذهب الباطل الذي زل فيه بعض العلماء جهلاً[1]، ونسبوه خطأً إلى السلف!؟ أم أنه يدين بما يدين به السلف الصالح في هذا الباب، أي أنه يُمر صفات الله كما جاءت بعد علم معانيها وحملها على ما يليق بذات الله ـ تعالى ـ دون تأويل لها، أو تشبيه لها بصفات خلقه، كما قال تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[2]!؟

لقد وردت للإمام الذهبي عبارات عديدة ـ كما سبق ـ توهم الناظر إليها بأنه يدين بمذهب أهل التفويض.

كما في قوله: «فقولنا في ذلك وبابه: الإقرار والإمرار وتفويض

(١) يقول شيخ الإسلام في المرجع السابق (ص ٢٨٩): «أما الصنف الثالث وهم أهل الجهل: فهم كثير من المنتسبين إلى السنة واتباع السلف». وانظر بعض من زل في هذا من الأعلام في كتاب «أقاويل الثقات» لمرعي الكرمي (ص ٦٠، ٦١، ٦٥، ١١٨، ١٨١، ١٩٧)، ومرعي ـ رحمه الله ـ من هؤلاء الأعلام! عفا الله عنهم جميعاً.

(٢) سورة الشورى، الآية: ١١.

معناه إلى قائله الصادق المعصوم»[١].

وقوله: «فنؤمن به ونفوض ونُسلم...»[٢].

وقوله: «معتقدين أنها صفات ﷺ تعالى، استأثر الله بعلم حقائقها»[٣].

وقوله: «من أقر بذلك تصديقاً لكتاب الله، ولأحاديث رسول الله ﷺ، وآمن به مفوضاً معناه إلى الله ورسوله»[٤].

وقوله: «أما السلف فما خاضوا في التأويل، بل آمنوا وكفُّوا، وفوضوا علم ذلك إلى الله ورسوله»[٥].

فهذه الأقوال السابقة من الإمام الذهبي ـ رحمه الله ـ تفيد بأنه يقول بمذهب أهل التفويض، ظاناً أنه مذهب السلف، لا سيما وأنه صرح بأنَّ التفويض يكونُ (لعلم) تلك الصفات إضافةً إلى أنه ـ كما سبق ـ أخبر بأن الباقلاني والجويني وابن فورك كانوا يدينون بمذهب السلف في آخر أمرهم. وهم إنما تركوا التأويل وعادوا إلى «التفويض» متوهمين أنه مذهب السلف[٦]!!

---

(١) السير (٨/ ١٠٥).

(٢) السير (٥/ ٤٥٠).

(٣) السير (١٠/ ٥٠٦).

(٤) السير (٢/ ٥٩٧-٥٩٨).

(٥) السير (١٤/ ٣٧٦).

(٦) انظر لبيان هذا رسالة «مذهب أهل التفويض» (ص ١٨٤-٢٣١).

ولكننا في المقابل نجد له ألفاظاً وعبارات تفيد بأنه يؤمن بمعاني تلكم الصفات وما تدل عليه، كما في قوله: «الحق أن يقول: إنه سميع بصير، مريد متكلم، حي عليم، كل شيء هالك إلا وجهه، خلق آدم بيده، وكلم موسى تكليماً، واتخذ إبراهيم خليلاً، وأمثال ذلك، فنمره على ما جاء، **ونفهم منه دلالة الخطاب على ما يليق به تعالى**، ولا نقول: له تأويل يخالف ذلك»[١].

وكما في قوله ـ رحمه الله ـ في صفة الاستواء ـ كما سبق ـ: «استواءه **معلوم** كما أخبر في كتابه، وأنه كما يليق به»[٢].

لهذا: فإن من أحسن الظن بالإمام الذهبي حمل أقواله المشتبهة على أقواله المحكمة وقال بأنه يدين بمذهب السلف في الصفات، ويرى تفويض (كيفية) الصفة لا (معناها) المتبادر من اللفظ، لا سيما وهو من تلاميذ مدرسة شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ الذين كانوا من أنصار مذهب السلف، إضافةً إلى تبيينهم لفساد مقولة أهل التفويض، وأنها لم تكن مذهباً للسلف، فهل كان الذهبي غائباً عن هذا كله!؟

أما من أساء الظن بالإمام الذهبي فإنه سيدعي أنه من أنصار

(١) السير (١٩/٤٤٨-٤٤٩).
(٢) مختصر العلو (١٤١-١٤٢).

(التفويض) الذي زل فيه كثير من العلماء الأذكياء، متتابعين عليه تقليداً من بعضهم لبعض، متوهمين أنه مذهب السلف ـ كما سبق ـ والإمام الذهبي أحد هؤلاء بشهادة عباراته السابقة، إضافةً إلى كونه شافعي المذهب، متأثراً بأئمة هذا المذهب في هذا الباب عند عودة كبارهم من المتأخرين إليه، فتابعهم في ذلك تقليداً.

ولعلَّ القول الأول أرجح، إحساناً للظن في إمامٍ شهير من تلاميذ مدرسة شيخ الإسلام، والله أعلم.

* * *

مسائل عقدية أخرى

* يرى الإمام الذهبي رأي السلف في «الإيمان».

قال ـ رحمه الله ـ: «الذي صح عن السلف أن الإيمان ذو شعب، وهو قول وعمل، ويزيد وينقص»[(١)].

وقال: «قال المَرُّوذي: ورد عليَّ كتابٌ من ناحية شيراز أنَّ فضلك قال بناحيتهم: إن الإيمان مخلوق. فبلغني أنهم أخرجوه من البلد بأعوان.

قلت: هذه من مسائل الفضول، والسكوتُ أولى، والذي صحَّ عن السلفِ وعلماءِ الأثر أنَّ الإيمان قولٌ وعملٌ، بلا ريبٍ أنَّ أعمالنا مخلوقةٌ، لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[(٢)]. فصحَّ أنَّ بعض الإيمان مخلوقٌ، وقولُنا: لا إله إلا الله، فمن إيماننا، فتَلَفُّظنا بها أيضًا من أعمالنا. وأما ما هِيَّةُ الكلمةِ الملفوظةِ، فهي غير مخلوقةٍ، لأنها من القُرآن، أعاذنا اللهُ من الفِتَن والهوى»[(٣)].

وقال ـ رحمه الله ـ: «ويكفي المسلمَ في الإيمان أن يُؤمِنَ بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والقدرِ خيرِه وشرِّه، والبعثِ بعدَ الموت، وأن الله ليسَ كمثله شيء أصلاً، وأنَّ ما ورد مِن صفاته

(١) تذكرة الحفاظ (٢/ ٦٠٠)، والسير (١١/ ٣٦٣-٣٦٤) و(١٢/ ٦٣٠).
(٢) سورة الصافات، الآية: ٩٦.
(٣) السير (١٢/ ٦٣٠).

المقدَّسة حق، يُمرُّ كما جاء، وأن القرآن كلامُ الله وتنزيله، وأنه غيرُ مخلوق، إلى أمثال ذلك مما أجمعت عليه الأمةُ، ولا عِبرة بمن شذَّ منهم، فإن اختلفتِ الأُمَّةُ في شيء من مُشْكِلِ أصولِ دينهم، لزمنا فيه الصمت، وفوَّضناه إلى الله، وقلنا: اللهُ ورسولُه أعلم[1]، وَوَسِعَنَا فيه السُّكوتُ»[2].

وقال ـ رحمه الله ـ تعليقًا على حديث: «**ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ فَهُوَ مُنافِقٌ: إذا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإذا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ**» قال رَجُلٌ: يا رَسولَ اللهِ، ذَهَبَت اثْنَتانِ، وَبَقِيتَ واحِدَةٌ؟ قال: «**فإنَّ عَلَيْهِ شُعْبَةً مِنْ نِفاقٍ، ما بَقِيَ فيهِ منْهُنَّ شَيْءٌ**»[3].

وفيه دليل على أن النفاق يتبعَّض ويتشَّعب، كما أن الإيمان ذو شُعَب ويزيد ويَنْقُصُ، فالكامل الإيمان من اتَّصف بفعل الخيرات، وترك المنكرات وله قُرَب ماحية لذنوبه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[4] إلى قوله:

---

(١) الأولى أن يقول بعد وفاة النبي ﷺ «الله أعلم».

(٢) السير (١٩/ ٣٤٦).

(٣) أخرجه الفريابي في «صفة النفاق وذم المنافقين» الصفحة: ٤٨، ٤٩ عام، أو: ١، ٢ خاص. وأبو معشر، واسمه نجيح بن عبدالرحمن السِّنْدِي، ضعيف. لكن الحديث ثابت عن أبي هريرة من غير طريقه، فقد أخرجه البخاري ١/ ٨٣، ٨٤ في الإيمان: باب علامات المنافق، من طريق أبي الربيع، سليمان بن داود العتكي، ومسلم (٥٩) في الإيمان: باب خصال المنافق، من طريق يحيى بن أيوب، كلاهما عن إسماعيل بن جعفر بن أبي كثير المدني، عن نافع بن مالك بن أبي عامر، عن أبيه، عن أبي هريرة.

(٤) سورة الأنفال، الآية: ٢.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ ﴾[١]، وقال: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[٢] إلى قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ * ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ ﴾[٣] ودون هؤلاء خلقٌ من المؤمنين الذين خلطوا عملاً صالحًا وآخرَ سيئًا، ودُونهم عُصاة المسلمين، ففيهم إيمانٌ ينجون به من خلود عذاب الله تعالى وبالشفاعة. ألا تسمَعُ إلى الحديث المتواتر: «أَنَّهُ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ فِي قَلْبِهِ وَزْنُ ذَرَّةٍ مِنَ إيمانٍ»[٤] وكذلك شُعَبُ النفاق مِن الكذب والخيانة والفجور والغَدر والرِّياء، وطلَبِ العلمِ ليُقال، وحُبِّ الرئاسة والمشيخة، ومُوادَّة الفجار والنصارى. فمن ارتكبها كُلَّها، وكان في قلبه غِل للنبيّ ﷺ، أو حَرَج من قضاياه، أو يصوم رمضان غيرَ محتسب، أو يُجَوِّز أنَّ دينَ النصارى أو اليهود دينٌ مليح، ويميل إليهم. فهذا لا تَرْتَبْ في أنه كاملُ النفاق، وأنه في الدَّرك الأسفل من النار، وصفاتُه الممقوتة عديدةٌ في الكتاب والسنة مِن قيامه إلى الصلاة كسلان، وأدائِه الزكاة وهو كاره، وإنْ عامل الناس فبالمكر والخديعة، قد اتَّخَذَ إسلاَمه جُنَّةً، نعوذُ باللهِ من النفاق،

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤.
(٢) سورة المؤمنون، الآية: ١.
(٣) سورة المؤمنون، الآيتان: ١٠، ١١.
(٤) أخرجه من حديث أنس، البخاري ١/ ٩٥، ٩٦ في الإيمان: باب زيادة الإيمان ونقصانه، و ١٣/ ٣٩٥ في التوحيد: باب كلام الرب تعالى يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم، ومسلم (١٩٣) (٣٢٥) و (٣٢٦) في الإيمان: باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها.

فقد خافه سادةُ الصحابة على نفوسهم.

فإنْ كان فيه شُعبة مِن نفاق الأعمال، فلهُ قسط من المَقت حتى يدعها، ويتوب منها، أما من كان في قلبه شكٌّ من الإيمان بالله ورسوله، فهذا ليس بُمسلم وهو من أصحاب النار؛ كما أن من في قلبه جزم بالإيمان بالله ورسله وملائكته وكتبه وبالمعاد، وإن اقتحم الكبائر، فإنه ليس بكافر، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾[1] وهذه مسألة كبيرة جليلة، قد صنَّف فيها العلماءُ كتبًا، وجمع فيها الإمام أبو العباس[2] شيخنا مجلدًا حافلاً قد اختصرته. نسأل الله تعالى أن يحفظ علينا إيماننا حتى نُوافِيه به»[3].

* ويرى الذهبي أن الروح مخلوقة: يقول: «وما يَشُك مسلمٌ في خلْق الأرواح، وأما سؤال اليهود لنبينا ﷺ عن الروح فإنما هو عن ماهيتها وكيفيتها لا عن خَلْقِها، فإن الله خالق كل شيء، وخالق أرواحنا ودوابّنا وموتنا وحياتنا»[4].

وقال في ترجمة (الطَّرقْي): «كان متفننًا له تصانيف، إلا

(١) سورة التغابن، الآية: ٢.

(٢) يقصد شيخ الإسلام ابن تيمية، وكتابه الذي أشار إليه هو «منهاج السُّنَّة»، ومختصره أسماه: «المنتقى من منهاج الاعتدال». وقد طبع بتحقيق محب الدين الخطيب.

(٣) السير (١١/ ٣٦٢-٣٦٤).

(٤) تاريخ الإسلام، وفيات: (٣٥١-٣٨٠) ص ٣٦٨، وسير أعلام النبلاء: ١٦/ ٢٦٤ و ١٩/ ٥٢٨، ميزان الاعتدال: ١/ ٨٦-٨٧.

أنه جَهل وقال بقدم الروح»[١].

وقال أيضًا: «وشبهته قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾[٢] قالوا: وأمره قديم، وهو شيء غير خلقه، وتلوا: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾[٣]، ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾[٤] وهذه من أردإ البدع وأضلها، فقد علم الناس أن الحيوانات كلها مخلوقة أجسادها وأرواحها»[٥].

* ويرى الذهبي أنه ﷺ لم يكتب ولم يقرأ مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ﴾[٦] وهذه صفة كمال له ﷺ، لأنه لو كان يقرأ ويكتب لاتهمه المشركون بأنه تعلم القرآن من غيره! وقد قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾[٧].

قال الذهبي تعليقًا على قول ابن مسعود: «ما ماتَ النَّبيُّ ﷺ حتّى قرأَ وكَتَبَ»[٨].

---

(١) السير (١٩/ ٥٢٨).

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.

(٤) سورة الشورى، الآية: ٥٢.

(٥) الميزان (١/ ٨٦-٨٧).

(٦) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.

(٧) سورة العنكبوت، الآية: ٤٨.

(٨) إسناده ضعيف لضعف مجالد ـ وهو ابن سعيد الهمدانيُّ الكوفيّ، وأورده الحافظ في «الفتح» ٧/ ٣٨٦-٣٨٧، ونسبه لابن أبي شيبة، وضعّفه.

«قلتُ: لَمْ يَرِدْ أَنَّهُ ﷺ كَتَبَ شَيْئًا، إلاَّ ما في «صحيح البخاري» من أنه يومَ صُلْح الحُدَيْبِيَة كَتَب اسمَه «محمّد بن عَبْدِالله»[1]. واحتجَّ بذلك القاضي أبو الوليد الباجي[2]، وقام عليه طائفةٌ من فقهاء الأنْدَلس بالإنكار، وبدَّعُوهُ حتى كفَّرَهُ بعضُهم. والخَطبُ يَسير، فما خَرَج عن كونه أُميًّا بكتابة اسمه الكريم، فجماعةٌ من الملوك ما عَلِموا من الكتابة سوى مجرَّد العَلامة، وما عدَّهُمُ الناسُ بذلك كاتِبين، بل هم أُمِّيُّون، فلا عِبْرَةَ بالنّادر، وإنَّما الحكمُ للغالب، واللهُ تعالى فمِنْ حِكْمَتِهِ لم يُلهِمْ نبيَّهُ تعلُّمَ الكتابة، ولا قراءة الكتب حَسْمًا لمادة المُبْطِلين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾[3] ومع هذا فقد افترَوْا وقالوا: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ﴾[4]، فانظر إلى قِحَةِ المعانِد، فمَن الذي كان بمكةَ وقتَ المَبْعَث يَدري أخبارَ

(١) انظر البخاري: ٥/ ٢٢٣ في الصلح: باب كيف يكتب هذا ما صالح فلانُ بنُ فلان فلانَ بنَ فلان، و ٧/ ٣٨٦ في المغازي: باب عمرة القضاء.

(٢) هو الحافظ العلامة، سليمان بن خلف بن سعد التجيبيُّ المالكيُّ الأندلسيُّ الباجيّ، كان من كبار علماء الأندلس وحفّاظها، رحل إلى المشرق سنة ست وعشرين وأربع مئة، ثم عاد إلى وطنه بعد ثلاث عشرة سنة بعلم جمّ، وولي قضاء أماكن، وصنّف التصانيف الكثيرة. ترجمه المؤلف في «التذكرة» ٣/ ١١٧٨، وانظر في ترجمته أيضًا «معجم الأدباء» ١١/ ٢٤٦-٢٥١، و «وفيات الأعيان» ٢/ ٤٠٨-٤٠٩.

(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٤٨.

(٤) سورة الفرقان، الآية: ٥.

الرُّسل والأمم الخالية؟ ما كان بمكّة أحدٌ بهذه الصِّفةِ أصلاً.

ثمَّ ما المانعُ من تعلُّم النَّبيِّ ﷺ كتابَة اسمِهِ واسمِ أبيه مع فَرْط ذكائِه، وقوَّة فَهْمِه، ودوام مُجالسَتِه لمَنْ يكتُبُ بين يديْهِ الوَحْيَ والكتبَ إلى ملوك الطَّوائف، ثمَّ هذا خاتمُهُ في يده، ونَقْشُه: محمدٌ رسولُ الله[1]، فلا يظنّ عاقلٌ، أنَّه ـ عليه السَّلام ـ ما تعقَّل ذلك، فهذا كلُّه يَقْتضي أنَّه عرف كتابَة اسمِه واسْم أبيه، وقد أخبر اللهُ بأنَّه ـ صلوات الله عليه ـ ما كان يَدري ما الكتاب؟ ثم علَّمه اللهُ تعالى ما لم يكن يَعلم. ثم الكتابةُ صفةُ مدحٍ، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[2] فلمَّا بلَّغَ الرِّسالة، ودخل الناسُ في دين الله أفواجًا، شاء اللهُ لنبيِّه أن يتعلمَ الكتابة النَّادرة التي لا يخرج بمثلها عن أن يكونَ أميًّا، ثم هو القائل: «إنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لا نَكْتُبُ ولا نَحْسُبُ»[3]. فصدق

(١) أخرجه البخاري: ١٠/ ٢٧٣ في اللباس: باب اتخاذ الخاتم ليختم به الشيء أو ليكتب به إلى أهل الكتاب وغيرهم، ومسلم (٢٠٩٢) (٥٦) في اللباس والزينة: باب اتخاذ النبي ﷺ خاتمًا لما أراد أن يكتب إلى العجم، كلاهما من طريق شعبة عن قتادة، عن أنس قال: لما أراد النبي ﷺ أن يكتب إلى الروم، فقيل له: إنهم لن يقرؤوا كتابك إذا لم يكن مختومًا، فاتخذ خاتمًا من فضة، ونقشه: محمدٌ رسولُ الله، فكأنما أنظر إلى بياضه في يده.

(٢) سورة العلق، الآيتان: ٤، ٥.

(٣) أخرجه البخاري: ٤/ ١٠٨ في الصوم: باب قول النبي ﷺ: لا نكتب ولا نحسُب، ومسلم (١٠٨٠) (١٥) في الصيام: باب وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال، كلاهما من طريق شعبة، عن الأسود بن قيس، عن سعيد بن عمرو بن سعيد، عن ابن عمر رضي الله عنهما... وتمامه: الشهر هكذا وهكذا ـ يعني: مرة تسعًا وعشرين، ومرة ثلاثين».

إخبارُهُ بذلك، إذ الحُكم للغالب، فنفى عنه وعن أمته الكتابَة والحِسَاب لندور ذلك فيهم وقِلَّته، وإلاَّ فقد كان فيهم كتَّابُ الوَحي وغير ذلك، وكان فيهم من يحسُب، وقال تعالى: ﴿وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ﴾[1]»[2].

* ويرى عصمته ﷺ قبل الوحي وبعده: يقول - رحمه الله -: «والذي لا ريبَ فيه أنه كان معصومًا قبل الوحي وبعده وقبل التشريع من الزنى قطعًا، ومن الخيانة، والغدر، والكذب، والسُّكْرِ، والسجود لوثن، والاستقسام بالأزلام، ومن الرذائل، والسَّفَهِ، وبَذَاءِ اللسان، وكشف العورة، فلم يكن يطوفُ عريانًا، ولا كان يقف يومَ عَرفَةَ مع قومه بمزدلفة، بل كان يقف بعرفة، وبكلِّ حال لو بدا منه شيء من ذلك، لما كان عليه تبعة لأنه كان لا يعرف، ولكنَّ رتبة الكمال تأبى وقوع ذلك منه، صلى الله عليه وسلم تسليمًا»[3].

* ويرى أن لا عصمة إلا لنَبي[4].

* ويرى كفر من رد على سيد البشر ﷺ: «فقد ذكر في ترجمة الحافظ علي بن الجَعْد أنه ذُكر عنده حديث «إنَّ ابني هذا سيِّد»،

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٢.
(٢) السير (١٤/ ١٩٠-١٩١).
(٣) سير أعلام النبلاء: (١/ ١٣١.
(٤) المرجع السابق، ١٣/ ١٢٠، ١٢٢.

فقال: ما جعله الله سيِّدًا! فردَّ الذهبي عليه قائلاً: «بل جعله سيِّدًا على رغم أنفِ كلِّ جاهل. فإنَّ مَنْ أصرَّ على مثل هذا الرد على سيِّد البشر، يكفُرُ بلا مَثْنَويَّة»[١].

وكذا يكفُرُ مَنْ قَصَدَ الغضَّ من منصب رسول الله ﷺ، أو تَنَقُّصَه، أو شَيْنَه[٢]، بأَبي هو وأمِّي!

* ويرى أن حياة النبيين في البرزخ حق: لا تأكل الأرض أجسادهم، ولا تتغير رائحتهم، وحياة سيدنا محمد أكمل من حياة سائر النبيين.

* ويرى الكف عن ما قد يوهم الغض من منصب النبوة، ولو كان أثرًا أو اجتهادًا من عالمٍ له قدره.

قال ـ رحمه الله ـ: «قال عليُّ بنُ خَشْرم: حدَّثنا وكيعٌ، عن إسماعيل بنِ أبي خالد، عن عبدِالله البَهِيِّ، أنَّ أبا بكر الصِّدِّيق جاءَ إلى النَّبي ﷺ بعد وفاته، فأكبَّ عليه، فقبَّله، وقال: «بأبي وأُمِّي، ما أَطْيَبَ حياتَكَ وميتَتَكَ»، ثم قال البهيُّ: وكان تُرِكَ يومًا وليلةً حتى رَبَا بَطْنُه، وانْثَنَتْ خِنْصِرَاهُ، قال ابنُ خَشْرم: فلما حدَّثَ وكيعٌ بهذا بمكَّة، اجتمعتْ قريش، وأرادوا صَلْبَ وكيع، ونصبُوا خَشَبةً لصَلْبِه، فجاء سفيانُ بنُ عُيَيْنَة، فقال لهم: اللهَ

(١) المرجع السابق، ١٠/ ٤٦٤. بلا مثنوية: بلا استثناء.

(٢) ميزان الاعتدال: ٢/ ٦٤٩-٦٥٠.

اللهَ! هذا فقيهُ أهل العِراق، وابنُ فقيهه، وهذا حديثٌ معروفٌ.
قال سُفيان: ولم أكنْ سمِعتُه إلا أنِّي أردتُ تخليص وكيع.

قال عليُّ بنُ خَشْرم: سمعتُ الحديثَ من وكيع، بعدما أَرادُوا صَلْبَهُ، فتَعجبْتُ من جَسَارتِه، وأُخبرتُ أنَّ وكيعًا احتجَّ، فقال: إنَّ عِدَّةً من أصحاب رسول الله ﷺ، منهم عُمر، قالوا: لم يَمُتْ رسول الله. فأرادَ اللهُ أَنْ يُرِيَهُم آيةَ الموت.

رواها أحمدُ بنُ محمد بنِ علي بن رَزين الباشاني قال: حدثنا عليُّ بنُ خَشْرم. وروى الحديثَ عن وكيع: قُتَيبةُ بنُ سعيد[١].

فهذه زَلَّةُ عالِمٍ، فما لوكيعٍ ولرواية هذا الخَبَرِ المُنكرِ المُنْقَطعِ الإسنادِ! كادت نفسُه أن تذهبَ غلطًا، والقائمون عليه مَعذُورُون، بل مأجُورُون، فإنَّهم تَخَيَّلوا من إشاعةِ هذا الخبر المردود، غضًّا ما لمنصب النُّبُوَّة، وهو في بادئ الرَّأي يُوهِمُ ذلك، ولكن إذا تأمَّلتَه، فلا بأس إنْ شاء اللهُ بذلك، فإنَّ الحيَّ قد يربو جوفُه، وتَسترخي مَفاصِلُه، وذلك تَفرُّع من الأمراض، و «**أَشَدُّ النَّاسِ بلاءً الأَنْبِياء**»[٢]، وإنَّما المحذورُ أن تُجوِّز عليه تَغَيُّر سائرِ

(١) انظر «الكامل» لابن عدي: ٦٥٤.
(٢) قطعة من حديث صحيح، ولفظه بتمامه «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلبًا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض، وما عليه خطيئة» أخرجه الترمذي (٢٤٠٠) في الزهد: باب ما جاء في الصبر على البلاء، وابن ماجه (٤٠٣٣) في الفتن: باب الصبر على البلاء، وأحمد ١/ ١٧٢ =

الآدميين ورائحتهم، وأكلَ الأرض لأجسادهم، والنبيُّ ﷺ فمُفَارِقٌ لسائرِ أُمَّته في ذلك، فلا يَبْلىٰ، ولا تأكُلُ الأرضُ جَسَدَه، ولا يتغيَّر رئحُه، بل هو الآن، وما زالَ أطيبَ رِيحًا من المِسْكِ، وهو حيٌّ في لحده[١] حياةَ مثلِه في البَرْزَخ، التي هي أكملُ من حياةِ سائر النَّبيين، وحياتُهم بلا ريبٍ أتَمُّ وأشرفُ من حياة الشُّهداء الذين هم بنَصِّ الكتاب ﴿أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ﴾[٢] وهؤلاء حياتُهم الآنَ التي في عالم البَرْزَخ حقٌّ، ولكن ليست هي حياةَ الدنيا من كلِّ وجهٍ، ولا حياةَ أهلِ الجنة من كُلِّ وَجْهٍ، ولهم شِبْهٌ بحياة أهلِ الكهف، ومن ذلك: اجتماعُ آدم وموسى، لمَّا احتَجَّ عليه موسى، وحجَّةُ بالعلم السابق[٣] كان اجتماعُهما حقًّا، وهما في عالم البَرْزَخِ، وكذلك نبيُّنا ﷺ أَخبر أنَّه رأى

= و ١٧٤ و ١٨٠ و ١٨٥، والدارمي ٢/ ٣٢٠، وابن حبان (٦٩٩) كلهم من طريق عاصم بن بهدلة، عن مصعب بن سعد، عن أبيه سعد.. وهذا سند حسن من أجل عاصم، وقال الترمذي: حسن صحيح، وصححه ابن حبان (٦٩٨) من طريق جرير ابن عبدالحميد، عن العلاء بن المسيب، عن أبيه، عن سعد.

(١) حديث «الأنبياء أحياء في قبورهم»: صحيح بطرقه، أخرجه أبو يعلى الموصلي في «مسنده» الورقة ١٦٨، وأبو نعيم في «تاريخ أصبهان» ٢/ ٨٣، والبزار في «مسنده» (٢٥٦)، والبيهقي في «حياة الأنبياء» من حديث أنس بن مالك، ولكنها حياة برزخية لا تُقاس بحياتهم في الدنيا، كما قد يتوهم ذلك الجهلة.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٦٩.

(٣) رواه البخاري ١١/ ٤٤١ في القدر: باب تحاج آدم وموسى، ومسلم (٢٦٥٢) في القدر باب حجاج آدم وموسى، ومالك ٢/ ٨٩٨ في القدر: باب النهي عن القول بالقدر، وأبو داود (٤٧٠١) في السنة: باب في القدر، والترمذي (٢١٣٥)، في القدر: باب رقم ٢.

في السماواتِ آدم وموسى وإبراهيم وإدريسَ وعيسى، وسَلَّم عليهم، وطالت مُحاوَرَتُه مع موسى[(١)]، وهذا كُلُّه حقٌّ. والذي منهم لم يَذُقِ الموتَ بَعْدُ هو عيسى عليه السلام، فقد تبرهَن لك أنَّ نبينا ﷺ مازال طَيِّبًا مُطَيَّبًا، وأَنَّ الأرضَ مُحرَّم عليها أكلُ أجسادِ الأنبياء، وهذا شيءٌ سبيلُهُ التوقيف، وما عنَّفَ النبيُّ ﷺ الصحابةَ رضي اللهُ عنهم لما قالوا له بلا علمٍ: وكيف تُعرضُ صلاتُنا عليك وقد أرَمْتَ؟ ـ يعني قد بَليتَ ـ فقال: «إنَّ اللهَ حَرَّمَ على الأَرْضِ أَنْ تأْكُلَ أَجْسادَ الأَنْبياء»[(٢)]. [(٣)]

---

(١) وذلك في حديث الإسراء الذي رواه البخاري ٦/ ٢١٧ و ٢١٩ في بدء الخلق: باب ذكر الملائكة، وفي الأنبياء: باب ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ * إِذْ رَءَا نَارًا﴾، وفي فضائل أصحاب النبي: باب المعراج، ومسلم (١٦٤) في الإيمان: باب الإسراء برسول الله ﷺ، والترمذي (٣٣٤٣) في التفسير: باب ومن سورة ألم نشرح، والنسائي ١/ ٢١٧ و٢١٨ في الصلاة: باب فرض الصلاة.

(٢) أخرجه أحمد ٤/ ٨، وأبو داود (١٠٤٧)، والنسائي ٣/ ٩١، ٩٢، وابن ماجه (١٠٨٥) و (١٦٣٦) من حديث أوس بن أوس رضي الله عنه. قال: قال رسول الله ﷺ: «من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا عليَّ من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة عليَّ» قالوا: يا رسول الله كيف تعرض عليك صلاتنا، وقد أرمت ـ يعني وقد بليت ـ؟ فقال: «إن الله عز وجل حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء». وإسناده صحيح، وصححه ابن خزيمة (١٧٣٣)، وابن حبان (٥٥٠)، والحاكم ٢/ ٢٨٧، ووافقه الذهبي، وحسنه الحافظان: المنذري وابن حجر، وصححه النووي في «الأذكار»، وله شاهد من حديث أبي الدرداء عند ابن ماجه (١٦٣٧)، ورجاله ثقات لكنه منقطع، وآخر من حديث أبي أمامة عند البيهقي، وحسن إسناده المنذري، إلا أن مكحولاً قيل: لم يسمع من أبي أمامة.

(٣) السير (٩/ ١٦٠-١٦٢).

وقال في ترجمة الحافظ صالح جزرة: «قال الحاكم: سمعت أبا النضر الطوسي يقول: مرض صالح جَزَرَة، فكانَ الأطبَّاء يختلفون إليه، فلمَّا أعياهُ الأمرُ، أخذ العَسَلَ والشُّونيز[١]، فزادت حُمَّاه، فدخلوا عليه وهو يرتعِدُ ويقول: بأبي أنتَ يا رسولَ الله، ما كان أقلَّ بَصرَك بالطِّب!!

قلت: هذا مُزاح لا يجوزُ مع سيِّد الخلق، بل كان رسولُ الله ﷺ أعلمَ النَّاسِ بالطِّب النَّبَوي، الذي ثَبتَ أنَّه قاله على الوجه الذي قَصَده، فإنَّه قاله بوحي، «فإنَّ اللهَ لَمْ يُنْزِلْ داءً، إلاَّ وَأَنْزَل لَهُ دواءُ»[٢]، فعلَّم رسوله ما أخبرَ الأمةَ به ولعلَّ صالحًا قالَ هذه الكلمة من الهُجْرِ[٣] في حال غَلَبَة الرِّعْدَة، فما وعى ما يقول، أو لعلَّه تابَ منها، والله يعفو عَنْه»[٤].

* ويعلق على مسألة رؤيته ﷺ ربَّه سبحانه في الدنيا، فيقول: «والذي دَلَّ عليه الدليلُ عدمُ الرؤية مع إمكانها، فنَقِفُ عن هذه المسألة، فإنَّ من حُسْن إسلام المرء تَرْكَهُ ما لا يَعْنيه، فإثباتُ ذلك أو نفيه صعبٌ، والوقوف سبيل السلامة، والله أعلم. وإذا ثبتَ شيء قُلنا به، ولا نعنِّف من أثبت الرؤية لنبيِّنا في

---

(١) الشونيز: هو الحبة السوداء.

(٢) أخرجه البخاري (١٠/ ١١٣-١١٤).

(٣) أي: الهذيان.

(٤) السير (١٤/ ٢٨-٢٩).

الدنيا، ولا مَنْ نَفَاها، بل نقول: الله ورسوله أعلم، بلى نُعَنِّفُ ونبدِّعُ مَنْ أنكر الرؤيةَ في الآخرة، إذ رؤيةُ الله في الآخرة ثبتَ بنصوصٍ مُتوافرة»[1].

* ويرى قصور العقل البشري وعجزه عن تصوّر ومعرفة: كُنْه الروح، وحياة الشهيد بعد قتله، وحياة النبيين الآن، وكيف شاهد النبي ﷺ أخاه موسى يصلي في قبره، ثم رآه في السماء السادسة وجاوره، وكيف ناظر موسى أباه آدم فَحَجَّه آدمُ، ووصف الجنة وما فيها، والملائكة وكيفيتهم، وعظم خلقتهم، فكيف يتعدى العقل على البحث في صفات الله تعالى وله المثل الأعلى والكمال المطلق، ولا مثل له أصلاً ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[2]»[3].

* ويقول الذهبي بكرامات الأولياء، ويثبتها، مع النقد للأشياء التي لا تصح:

فقد قال في ترجمة الحافظ محمد بن أبي الحسين اليونيني: «كان الشيخ الفقيه كبيرَ القدر، يُذكر بالكرامات والأحوال»[4].

وترجم الشيخ عبدالقادر الجيلاني ترجمة جليلة ثم قال:

---

(١) السير (١٠/ ١١٤).

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٥٢.

(٣) مختصر العلو: ٢٧٠-٢٧١.

(٤) تذكرة الحفاظ: ٤/ ١٤٤٠.

«ليس في كبار المشايخ مَنْ له أحوال وكرامات أكثر من الشيخ عبدالقادر، لكنَّ كثيرًا منها لا يَصِح، وفي بعض ذلك أشياء مستحيلة»[١].

* ويرى أن الكرامات والخوارق إنما تكثر في الأمة إذا ضعف إيمان أفرادها.

قال ـ رحمه الله ـ: «عن بكر المُزَنيّ ـ وهو في «الزهد» لأحمد ـ قال: كان الرجل في بني إسرائيل إذا بلَغ المبلغ، فمشى في الناس، تُظِلُّهُ غمامة[٢].

قلتُ: شاهدُه أنَّ اللهَ قال: ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ ﴾[٣] ففعل بهم تعالى ذلكَ عامًا؛ وكان فيهم الطائع والعاصي. فَنَبِيُّنا صلواتُ الله عليه أكرمُ الخلق على ربِّه، وما كانت له غمامةٌ تُظِلُّهُ ولا صحَّ ذلك[٤]؛ بل ثَبَتَ أنَّهُ لمَّا رَمىٰ الجَمْرة كان بلال يُظِلُّهُ بثوبه من حرِّ الشمس. ولكنْ كان في بني إسرائيل الأعاجيبُ والآيات؛ ولمَّا كانَتْ هذه الأُمَّةُ خَيْرَ الأمم، وإيمانُهم أثبت، لَمْ يحتاجُوا إلى بُرْهان، ولا إلى خوارق، فافهم هذا؛ وكُلَّما ازداد المؤمنُ عِلمًا ويقينًا، لم يَحْتجْ إلى الخوارق، وإنَّما

(١) سير أعلام النبلاء: ٢٠/ ٤٥٠.

(٢) حلية الأولياء (٢/ ٢٢٦).

(٣) سورة البقرة، الآية: ٥٧، وسورة الأعراف، الآية: ١٥٩.

(٤) أي لقاءه ﷺ ببحيرى الراهب. وقد صححه ابن حجر وابن القيم.

الخوارقُ للضعفاء، ويكثُر ذلك في اقتراب السَّاعة»[١] .

* ويرى أبدية النار وعدم فنائها، كما هو مذهب أهل السنة، فقد قال في ترجمة (ابن برهان) الذي يرى فناء النار.

«قلت: حجته في خروج الكفار هو مفهوم العدد من قوله: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابًا﴾[٢] ولا ينفعه ذلك لعموم قوله: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[٣]، ولقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ﴾[٤] إلى غير ذلك، وفي المسألة بحث عندي أفردتها في جزء[٥]»[٦] .

* ويرى أن (الميزان) ذو كفتان، فقد قال في ترجمة (الغزالي) الذي يرى تأويل الميزان.

«قلت: بل ميزان الأعمال له كفتان، كما جاء في الصحيح»[٧] .

* ويرى عدم تأويل (العرش).

قال ـ رحمه الله ـ: «ابن سعد: أَنبأنا محمد بن فضيل، عن عطاء بن السائب، عن مجاهد عن ابن عمر قال: اهتزَّ العرشُ

(١) السير (٤/ ٥٣٣).
(٢) سورة النبأ، الآية: ٢٣.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٦٧.
(٤) سورة النساء، الآية: ١٦٩.
(٥) لعله جزء «دوام النار» الذي سبق ذكره في مؤلفاته.
(٦) السير (١٨/ ١٢٦).
(٧) السير (١٩/ ٣٤٥).

لحب لقاء الله سعدًا. قال: إنما يعني السرير. وقرأ ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾[١] قال: إنما تفسحت أعوادُه.

قال: ودخل رسولُ الله ﷺ قبره، فاحتُبِسَ، فلما خرج، قيل يا رسول الله! ما حبسَك؟ قال: ضُمَّ سعد في القبر ضمة، فدعوتُ الله أَن يكشِفَ عنه[٢].

قلت: تفسيره بالسرير ما أَدري أَهو من قول ابن عمر، أَو من قول مجاهد. وهذا تأويل لا يُفيد. فقد جاء ثابتًا عرش الرحمن وعرش الله، والعرش خلقٌ لله مسخَّرٌ إذا شاء أَن يهتزَّ اهتز بمشيئة الله، وجعل فيه شعورًا لحب سعد، كما جعل تعالى شعورًا في جبل أُحُد بحبه النبيَّ ﷺ. وقال تعالى: ﴿ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ ﴾[٣]، وقال: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ ﴾[٤] ثم عمم فقال: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾. وهذ حق. وفي صحيح البخاري قولُ ابن مسعود: كنا نسمعُ تسبيحَ الطعام وهو يؤكل[٥]. وهذا باب واسع سبيلُه الإيمان»[٦].

* ويرى - رحمه الله - أن لا حاجة لقول: «إن الله مستوٍ على

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٠.
(٢) أخرجه ابن سعد ٣/ ٢/ ١٢، وابن أبي شيبة.
(٣) سورة سبأ، الآية: ١٠.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.
(٥) أخرجه البخاري (٣٥٧٩).
(٦) السير (١/ ٢٩٦-٢٩٧).

العرش بذاته» أي بإضافة كلمة «ذاته».

ولما قال ابن الزاغوني في قصيدته في العقيدة، التي مطلعها:

إني سأذكر عقد ديني صادقًا ... نَهْج ابن حنبل الإمام الأوحَدِ

إلى أن قال:

عالٍ على العرش بذاته ... سبحانه عن قول غاوٍ ملحدِ

قال الذهبي: «قد ذكرنا أن لفظة «بذاته» لا حاجة إليها، وهي تشغب النفوس، وتركها أولى، والله أعلم»[١].

قلت: هذه اللفظة «بذاته» لم تكن معروفةً عند السلف ـ رحمهم الله ـ من الصحابة ومن بعدهم، إلا أنه لما ابتدع الجهم بدعته بأن الله في كل مكان، ثم جاء من يتأول الاستواء، اقتضى ذلك أن يقول السلف بهذه اللفظة توضيحاً[٢]. فلا معنى لإنكار الذهبي لها.

* وذكر مسألة: هل الجنة التي أُخرج منها آدم عليه السلام هي جنة الخلد أم غيرها؟ ولم يُعلن رأيه فيها (بوضوح).

قال ـ رحمه الله ـ: «مما نقل عن ابن مسرة، أنه كان يقول:

---

(١) السير (١٩/ ٦٠٦-٦٠٧).

(٢) انظر مقدمة الألباني لكتاب «مختصر العلو» للذهبي (ص ١٨).

ليست الجنة التي أُخرج منها أبونا آدم بجنة الخلد، بل جنةٌ في الأرض. فهذا تنطع وتعمق مرذول»[١].

* ويرى أن المَلَكَان يكتبان كل شيء يقوله الإنسان ولو كان مباحًا.

قال ـ رحمه الله ـ: «قال بِشْرٌ الحافي: كان المُعَافى صاحبَ دنيا واسعةٍ وضياع كثيرة، قال مَرَّة رجلٌ: ما أشدَّ البردَ اليوم، فالتفتَ إليه المُعَافى، وقال: أستدفأتَ الآن؟ لو سكتَّ، لكان خيرًا لك.

قلتُ: قولُ مثلِ هذا جائزٌ، لكنهم كانوا يكرَهون فُضُولَ الكلام، واختلف العلماءُ في الكلام المباح، هل يكتُبه المَلَكان، أم لا يَكتُبان إلا المستَحبَّ الذي فيه أجرٌ، والمذمومَ الذي فيه تَبِعَة؟ والصحيحُ كتابةُ الجميع لعموم النَّصِّ في قوله تعالى: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[٢] ثم ليس إلى الملكين اطِّلاع على النِّيات والإخلاص، بل يكتُبانِ النُّطْقَ، وأما السَّرائرُ

(١) السير (١٥/٥٥٧) وقد علَّق محقق هذا الجزء من السير على كلام الذهبي بكلام عجيب يثبت فيه أن جنة آدم.
قلت: بل الصواب أنها جنة الخلد لأدلة كثيرة ـ لا مجال لذكرها هنا ـ ذكرها ابن القيم ـ رحمه الله ـ في كتابه «حادي الأرواح» (ص ٥٧-٧٦) ويكفي منها قوله ﷺ عن المؤمنين بأنهم يأتون آدم ـ عليه السلام ـ يوم القيامة، فيطلبون منه أن يشفع لهم في دخول الجنة فيقول: «وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم؟».

(٢) سورة ق، الآية: ١٨.

الباعثةُ للنُّطقِ، فالله يتولاَّها»(١).

* وقال: «إن الله لا يحجبه شيء قط عن رؤية خلقه، وأما نحن فمحجوبون عنه في الدنيا، وأما الكفار فمحجوبون عنه في الدارين. أما إطلاق الحجب فقد صح أن «حجابه النور» فنؤمن بذلك ولا نجادل، بل نقف»(٢).

* ويرى عدم التعمق في مسألة «القدر»: حيث قال تعليقًا على قوله: «إن للقدر سرًا نهينا عن إفشائه»: «فأي سرٍ للقدر؟ فإن كان مدركًا بالنظر وُصل إليه ولابد، وإن كان مدركًا بالخبر فما ثبت فيه شيء، وإن كان يُدرك بالحال والعرفان فهذه دعوى محضة»(٣).

* * *

(١) السير (٩/ ٨٤).
(٢) السير (١٤/ ٢٣٥).
(٣) السير (١٩/ ٣٣٧-٣٣٨).

عقيدة الإمام الذهبي في

كـــلام الله

قبل أن أبين ما يدين الذهبيُ اللهَ به في هذه المسألة من خلال أقواله أقدِّم بين يدي ذلك بذكر اعتقاد أهل السنة والجماعة في هذه المسألة التي كثر القول فيها وتشعب، وتفرق الناس من خلالها إلى طوائف وأحزابٍ شتى، وهدى الله السلف إلى القول الحق فيها ـ ولله الحمد ـ.

فالسلف يعتقدون: «أن لله تعالى صفةَ الكلام، وهي صفةٌ قائمةٌ به غير بائنةٍ عنه، لا ابتداء لاتصافه بها ولا انتهاء، يتكلم بها بمشيئتِه واختيارِه.

وكلامه تعالى أحسن الكلام.

ولا يشبه كلام المخلوقين، إذ الخالق لا يُقَاسُ بالمخلوق.

ويكلم به مَن شاءَ من خلقه: من ملائكته، ورسله، وسائر عباده، بواسطة إن شاء، وبغيرها.

ويُسْمِعُه على الحقيقة مَن شاءَ من ملائكته، ورسله، ويُسْمِعُه عباده في الدار الآخرة بصوتِ نفسِه، كما أنّه كلَّم موسى وناداه حين أتى الشجرة بصوتِ نفسِه فسَمِعَه موسى.

وكما أَنَّ كلامَه تعالى لا يشبه كلامَ المخلوقين، فإنَّ صوتَه لا يشبه أصواتَهم.

وكَلِماته تعالى لا نهاية لها.

ومن كَلامِه : القرآن، والتوراة، والإنجيل .

فالقرآنُ كلامُه : سُوَره، وآياته، وكلماته .

تكلم به بحروفِهِ ومعانيه .

ولم يُنْزِلْه على أحدٍ قبلَ محمد ﷺ .

أسمعَه جبريلَ عليه السلام، وأسمعَه جبريلُ محمدًا ﷺ، وأسمعَه محمدٌ ﷺ أُمَّتَه، وليس لجبريل ولا لمحمّد ﷺ إلاّ التبليغ والأداء .

وهو المكتوب في اللوح المحفوظ، وهو الذي في المصاحفِ، يتلوهُ التالونَ بألسنتِهم، ويقرؤه المقرئونَ بأصواتِهم، ويسمَعُه السامعون بآذانهم، وينسخَه النسّاخ، ويطبعُه الطابِعونَ بآلاتِهم، وهو الذي في صدورِ الحفّاظ، بحروفه ومعانيه، تكلّم الله به على الحقيقة، فهو كلامُه على الحقيقةِ لا كلامُ غيره، منه بدأ، وإليه يعود، وهو قرآنٌ واحدٌ منزَل، غيرُ مخلوقٍ، كيفَما تصرَّف : بقراءةِ قارئ، أو بلفظِ لافظٍ، أو بحفظِ حافظٍ، أو بخطِّ كاتبٍ، وحيثُ تُليَ، وكُتِبَ، وقُرئَ .

فمن سَمِعه فزعم أنّه مخلوق فقد كفر .

وكتَبَ تعالى التوراةَ لموسى بيده، قبلَ خلقِ آدم بأربعينَ سنة ـ كما صحَّ به الخبر ـ .

وكلام الله تعالى ينقَسِم ويتبعّض ويتجزّأ .

فالقرآن مِن كلامِه ، والتوراة من كلامِه ، والإنجيل من كلامِه .

والقرآن غير التوراة ، والتوراة غير الإنجيل .

والفاتحة بعض القرآن ، وآية الكرسي بعض البقرة ، وسورة البقرة غير سورة آل عمران ، وهكذا سائر كلامه .

كما أنّه تعالى تكلَّم باللغاتِ ، فالتوراة بالعبرانية ، والقرآن بالعربية ، والإنجيل بالسريانية .

وفي القرآن من المعاني ما ليس في التوراة ، وفيها من المعاني ما ليسَ في القرآن ، وهكذا سائر كلامه .

كما أنّ كلامَه تعالى يتفاضَل ، فيكون بعضه أفضلُ من بعض ، فآية الكرسي أفضل من سِواها من الآي وسورة الفاتحة لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في القرآن مثلها ، وقل هو الله أحد تعدِل ثلث القرآن .

كما أنَّ كلامَه تعالى يتعاقب ـ أي يتلو بعضُه بعضًا ـ كـ ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ﴾ فكلمة ﴿ ٱللَّهِ ﴾ عقب ﴿ بِسۡمِ ﴾ والسين عقب الباء ، والميم عقب السين ، وكل ذلكَ كلامُ الله تعالى غَير مخلوق ، بألفاظه وحروفه ، لا يشبه كلام الخَلق .

وأصوات العباد وحركاتهم بالقرآن ، وورق المصحف ،

وجلدُه، ومداد الكتابةِ، كلّ ذلك مخلوق مصنوع، والمؤلّف من الحروف المنطوقة المسموعة المسطورة المحفوظة، كلام الله تعالى غير مخلوق بحروفه ومعانيه»(١).

«ولقد كانَ السلفُ في صدر الإسلام في غِنىً عن إطلاقِ لفظ (غير مخلوق) لأنه كانَ من المُسَلَّم عندهم أنَّ كلامَ الله صفةٌ مِن صفاتِه، وصفاتُه غير مخلوقة، حتى ظَهرت الجهميةُ، فنفت صفةَ الكلامِ عن الله تعالى، لكن لمّا كانَ هذا القولُ منكرًا شنيعًا، تنفرُ منه قلوبُ الناس، وتقشَعِرُّ منه جلودهم، ويرفُضه إيمانُهم، أبدَلوه بقولهم: كلام الله مخلوق، فتظاهَروا بإثبات الكلام، وأبطلوه بقولهم: مخلوق.

فلمّا كانَ حقيقة قولهم إبطال صفةِ الكلام وتعطيلها قابَلهم السلَفُ برفض هذه البدعة وإنكارها، والتشديد عليهم في ذلكَ، بل وتكفيرهم، لأنَّ حقيقةَ قولهم الكفر، لِما تضمَّنَ من تكذيبِ القرآنِ، وإثبات النقصِ للرحمنِ، فقالَ السلَفُ حينئذ: (كلام الله ـ كالقرآن وغيره ـ غير مخلوق)»(٢).

«ولكن طائفةً من المنتسبين إلى العلم لم يفقَهوا حقيقة هذه البدعة، ولم يفهموا مرادَ أهلها جَهلاً منهم، فتعسَّروا القولَ:

---

(١) العقيدة السلفية... للجديع (ص ٦٣-٦٥).
(٢) المرجع السابق (ص ١٠١).

القرآنُ كلامُ الله غير مخلوق، كما تعسَّروا القولَ: كلام الله مخلوق، خوفًا من البدعة، فوقفوا عن ورع مبنيّ على جهلٍ، وإنّما أكّدَ ذلكَ أنّها كانت مسألةً حديثةَ الورود على أذهانهم، لم يكن لهم بها سابق علم.

ولكن الناسَ حين وقعوا في ذلك، وعظمت بسببه البليّة، وجَبَ إظهارُ الحقّ والإبانة عنه، وذلك ما كان من الأئمة، وأعلام الأمّةِ، الذين هم قدوة الناس.

ولقد سُئِلَ الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: هَلْ لهم رخصة أنْ يقولَ الرجل: القرآن كلام الله تعالى ثم يسكت؟ فقالَ: «ولِمَ يسكت؟ لولا ما وقَعَ فيه الناس كان يسعه السكوت، ولكن حيث تكلّموا فيما تكلّموا لأي شيءٍ لا يتكلّمون؟»[(١)].

قال الحافظ أبو بكر الآجري: «معنى قول أحمد بن حنبل في هذا المعنى، يقول: لم يختلف أهل الإيمان أن القرآن كلام الله عز وجل، فلمّا جاءَ جهمٌ فأحدثَ الكفرَ بقوله: إنّ القرآن مخلوق، لم يسَع العلماءَ إلاّ الردَّ عليه بأنّ القرآنَ كلامُ الله عزَّ وجلَّ غير مخلوقٍ بلا شكّ ولا توقّف فيه، فمن لم يقل: غير مخلوق، سُمّيَ واقفيًا شاكًا في دينه»[(٢)].

---

(١) رواه أبو داود في «المسائل» ص ٢٦٣-٢٦٤، ومن طريقه: الآجري ص ٨٧، وإسماعيل بن الفضل ق ١١٤/أ.

(٢) الشريعة. للآجري ص ٨٧.

وقال أحمدُ أيضًا: «كنا نرى السكوتَ عن هذا قبلَ أن يخوضَ فيه هؤلاء، فلمّا أظهروه لم نجد بدًّا من مخالفتهم والردّ عليهم»[١].

والأئمة جميعًا على إنكارِ هؤلاء، والتشديد عليهم، وتبديعهم، وأبو عبدالله أحمد بن حنبل أشدّهم إنكارًا»[٢].

«وإنما شدد الأئمة كلَّ هذا التشديد على هؤلاء الواقفة لأجلِ أنَّ الحقَّ في كلام الله قد بانَ وظهر، وقامَتْ عليه دلائِلُ الشرع القاطعة، فلِمَ يبقى عند هؤلاء تردّد في اعتقاده والقول به؟

أمّا دعواهم أن القول: (القرآن كلام الله غير مخلوق) لم يتكلم به المتقدمّون، فهو مكابرة منهم لاحقاق باطلهم، وإلا فكيف يتكلم المتقدمون بما لم يقع ولم يشهَدوه؟ أو بما لا يدرون إن وقَعَ كيف يكون؟»[٣].

أما مسألة «اللفظ» التي كثر الخوض فيها، فلتوضيحها أقول:

«حين ابتدع الجهمية ـ قاتلهم الله ـ القولَ بأنَّ ألفاظ العباد بالقرآن مخلوقة، أوقع ذلك لَبْسًا، جرَّ بعض المنتسبين إلى السنة والحديث إلى الوقوع في بعض المحاذير، بل جرَّ آخرين

---

(١) ذكره عنه عثمان الدارمي في «النقض على المريسي» ص ١١٠.
(٢) العقيدة السلفية، للجديع (ص ١٣٠-١٣١).
(٣) المرجع السابق (ص ١٣٧).

إلى موافقة الجهمية في حقيقة قولهم ومرادهم، وكانت مسألة اللفظ سِترًا يستتر به المنافقون من الجهمية، لِما يخشون من فضيحة أهل الحق لهم حين يصرّحون باعتقادهم، فيقولون: القرآن مخلوق.

وكان الناس قد افترقوا حين ظهرت هذه البدعة إلى أربع فرق:

الأولى: الجهمية القائلين بخلق القرآن، تستّروا بالقول: ألفاظنا بالقرآن مخلوقة، ومرادهم: أنَّ كلام الله مخلوق اعتقاد أَسْلافهم.

والثانية: طائفةٍ شابهت الجهمية في بعض قولهم، وهم الكلاّبيّة ـ أتباع عبدالله بن سعيد بن كُلاّب ـ فأطلقوا القول كالجهمية: ألفاظنا بالقرآن مخلوقة، ومرادهم: أنَّ القرآنَ العربيّ الذي نزلَ به جبريل، الذي هو الألفاظ المؤلفة من الحروف كالألف والباء والتاء، مخلوق، وأنَّ الله تعالى لم يتكلم بالحروف، إنمّا كلامه معنى مجرد عن الألفاظ وهذا قديم غير مخلوق، وهؤلاء هم المسمَّون بـ (اللفظية النافية).

والثالثة: طائفةٍ من أهل الحديث، كأبي حاتم الرازي الحافظ، وأبي سعيد الأشج[1]، وغيرهما، لمّا رأوا تضمّن قول الجهمية

(١) ذكره عنهما الحافظ أبو الشيخ الأصبهاني، فيما رواه عنه قوّام السنة إسماعيل بن =

والكلّابيّة معنى باطلاً، أرادوا الردَّ عليهم، فأطلقوا القولَ بضد مَقالتهم، فقالوا: ألفاظنا بالقرآن غير مخلوقة.

ومرادهم: أنَّ الألفاظ المؤلفة من الحروف، والتي هي القرآن العربي الذي نزل به جبريل عليه السلام من ربّ العالمين غير مخلوق، لكن لمّا كان إطلاقهم موهمًا إدخال فعل العبد فيه والذي بيّناه فيما مضى، وقع المحذور، فتبعتهم طائفة على مقالتهم وأدخلوا في إطلاقها صوت العبدِ بالقرآن وفعله، وربما توقف بعضهم في ذلك، وهؤلاء هم المسمَّون بـ (اللفظية المثبتة).

والرابعة: طائفة الأئمة الربّانيين من أهل السنة والإتباع ـ كالإمام أحمد ـ رحمهم الله ـ، مَنَعوا إطلاق القولين السابقين: اللفظ بالقرآن مخلوق، وغير مخلوق، وقالوا: القرآن كلامُ الله ووحيه وتنزيله، بألفاظه ومعانيه، ليس هو كلامه بألفاظه دون معانيه، ولا بمعانيه دون ألفاظه، وأفعال العباد وأصواتهم مخلوقة، والعبدُ يقرأ القرآن، فالصوت صوت القارئ، والكلامُ كلام الباري»[1].

وسبب انكارهم ـ رحمهم الله ـ للقولين السابقين أي (لفظي

= الفضل في كتابه القيم «الحجة» ق ١١٢ب - ١١٣/أ، وأبو حاتم اسمه محمد بن إدريس، والأشج عبدالله بن سعيد.

(١) العقيدة السلفية، للجديع (ص ٢٠١-٢٠٢) بتصرف.

بالقرآن مخلوق) أو (غير مخلوق).

هو أننا إذا قلنا: (لفظي بالقرآن مخلوق) يدخل في اللفظ (الملفوظ) أي القرآن، وهذا قول الجهمية الذين يرون خلق القرآن.

وإذا قلنا: (لفظي بالقرآن غير مخلوق) يدخل في اللفظ: حركة اللافظ وهي مخلوقة، فهو لفظ مُوهم.

ولأجل هذا قال الإمام أحمد: «من قال لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي، ومن قال غير مخلوق فهو مبتدع»[1]، لأن من يقول «لفظي بالقرآن مخلوق» يقصد أن هذا القرآن العربي مخلوق، وهذا من ألاعيب الجهمية في الترويج لمذهبهم بأساليب مقبولة لعامة الناس، ولكن الإمام أحمد والسلف تنبهوا إلى مقاصدهم فمنعوا من هذا القول.

أما من قال هذا القول؛ أي «لفظي بالقرآن مخلوق» وهو يعني أن حركته مخلوقة فهو ليس جهميًا، ولكنه أساء في اطلاق هذه العبارة الموهمة، ولأجل هذا أنكر بعض السلف على بعض الأئمة كالبخاري ـ رحمه الله ـ في إطلاقه مثل هذه العبارة الموهمة كقول «أفعالنا مخلوقة» لما سئل عن القرآن، وهذا معنىً صحيح، ولكن ـ كما سبق ـ الأولى اجتناب الألفاظ

(١) الفتاوى لابن تيمية (١٢/ ٣٢٥).

والعبارات الموهمة، والاقتصار على قول «القرآن كلام الله غير مخلوق».

○ عقيدة الإمام الذهبي في كلام الله:

بعد أن عرفنا مجمل اعتقاد السلف في كلام الله ـ عز وجل ـ وما تفرع عنه من مسائل أُثيرت في عصرهم، بقي أن نجمع كلام الإمام الذهبي ـ رحمه الله ـ في هذه المسألة لنعلم: هل هو موافق لهم في اعتقادهم أم مخالف؟ فإلى أقواله ـ رحمه الله ـ:

قال ـ رحمه الله ـ: «قال أحمدُ بن كامل القَاضي: أخبرَني أبو عبدالله الوَرّاق: أنَّه كان يُورق على دَاود بنِ عَلي، وأنَّه سَمِعَه يُسْأَلُ عن القُرْآن، فَقَالَ: أمَّا الذي في اللَّوْح المحفُوظِ: فَغَيْرُ مَخْلوق، وأمَّا الذي هو بين النَّاس: فمخلوق.

قلت: هذه التَّفرقة والتَّفْصيلُ ما قالَها أحدٌ قَبْلَه، فيما علمتُ، وما زَال المسْلمون عَلى أنَّ القُرآن العَظيم كلامُ اللهِ، وَوَحْيُه وتَنْزيْلُه، حتى أظهَرَ المأمون القولَ: بأنَّه مَخْلوق، وَظَهَرَتْ مَقَالَة المعتزلة، فَثَبَتَ الإمامُ أحمدُ بن حَنبل، وأئمةُ السُّنَّة على القَول: بأنه غير مَخْلوق، إلى أن ظَهَرت مقالة حُسَيْن بن علي الكَرابِيْسي، وهي: أنَّ القرآن كلامُ الله غيرُ مَخْلوق، وأن ألفاظنا به مخلوقة، فأنكر الإمام أحمد ذلك، وعده بدعة وقال: من قال: لَفْظي بالقُرآن مَخْلوق، يريدُ به القُرآن، فهو جَهْمي.

وقالَ أيضًا: من قال: لفظي بالقرآن غير مَخْلوق فهو مُبْتَدِع. فَزَجَرَ عن الخوضِ في ذلك من الطَّرفين.

وأمَّا داود فقالَ: القرآن محدَثٌ. فقامَ على داود خلقٌ من أئمةِ الحديثِ، وأنكروا قولَه وبَدَّعوه، وجاءَ مِن بعده طائفةٌ من أهلِ النَّظر[١]، فَقَالُوا: كلامُ الله مَعنًى قائمٌ بالنَّفْس، وهذه الكُتُبُ المنزلة دالةٌ عليه، ودَقَّقُوا وعَمقُّوا، فنسألُ الله الهُدَى واتِّبَاع الحقِّ، فالقرآنُ العظيمُ، حُروفُه ومَعانيه وألفاظُه كلامُ ربِ العَالمين، غَيرُ مَخلوق، وتَلَفُّظُنا به وأصْواتُنا به من أعمالنا المخلوقَة، قال النَّبي ﷺ: «زَيِّنُوا القُرْآنَ بأَصْوَاتِكُمْ»[٢]. ولكنْ لمَّا كانَ الملفوظ لا يَسْتَقِلُّ إلاَّ بتَلَفُّظنا، والمكتوبُ لا ينفكُّ عن كتابةٍ، والمتْلو لا يُسْمع إلا بتلاوةِ تالٍ، صَعُبَ فهْمُ المسألةِ، وعسُر إفرازُ اللَّفْظِ الَّذِي هو الملفوظ من اللَّفْظ الذي يُعنى به التَّلَفُّظ، فالذِّهن يَعْلمُ الفَرْقَ بين هذا وبين هذا، والخَوْضُ في هذا خَطِر. نَسْأَلُ الله السَّلامةَ في الدِّين. وفي المسْأَلةِ بحوثٌ طَويلةٌ، الكَفُّ عنها أَوْلى، ولاسِيَّما في هذه الأزمنة المُزْمِنَة»[٣].

---

(١) بل من أهل البدع، وهم الكلابية والأشاعرة الذين قالوا بأن كلام الله كلام نفسي قائم بذاته ـ عز وجل ـ وأما الذي بين أيدينا فهو عبارة أو حكاية عن كلام الله!! أي أنه مخلوق! ـ كما سبق بيانه ـ.

(٢) أخرجه من حديث البراء بن عازب أحمد: ٤/ ٢٨٣، و٢٨٥، و٢٩٦، و٣٠٤، والدارمي: ٢/ ٤٧٤، وأبو داود: (١٤٦٨)، والنسائي: (٢/ ١٧٩-١٨٠)، وابن ماجه (١٣٤٢) وإسناده صحيح، وصححه ابن حبان: (٦٦٠)، والحاكم.

(٣) السير (١٣/ ١٠٠-١٠١).

وقال: «قال عبدُالله بنُ أحمد: سئل أبي، وأنا أسمعُ عن اللفظية والواقفة، فقال: من كان منهم يُحسِنُ الكلام، فهو جهمي.

الحكم بن معبد: حدثني أحمدُ الدورقي، قلتُ لأحمد بنِ حنبل: ما تقولُ في هؤلاء الذين يقولون: لفظي بالقرآن مخلوق؟ فرأيته استوى واجتمع، وقال: هذا شرٌّ من قول الجهمية. من زعم هذا، فقد زعم أن جبريل تكلم بمخلوق، وجاء إلى النبي ﷺ بمخلوق.

فقد كانَ الإمام لا يرى الخوضَ في هذا البحث خوفًا من أن يُتَذَرَّعَ به إلى القول بخلق القرآن، والكفُّ عن هذا أولى. آمنَّا بالله تعالى، وبملائكته، وبكتبه، ورسله، وأقداره، والبعث، والعرض على الله يوم الدين. ولو بسط هذا السطر، وحُرِّر وقُرِّرَ بأدلته لجاء في خمس مُجَلَّدَات، بل ذلك موجودٌ مشروحٌ لمن رامه، والقرآن فيه شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين، ومعلومٌ أن التلفُّظَ شيءٌ من كَسْب القارئ غيرُ الملفوظ، والقراءةُ غيرُ الشيء المقروء، والتلاوةُ وحُسْنُها وتجويدُها غيرُ المتلُوِّ، وصوتُ القارئ من كَسْبه فهو يُحدثُ التلفُّظَ والصوتَ والحركَةَ والنطقَ، وإخراجَ الكلمات من أدواته المخلوقة، ولم يُحْدِثْ كلماتِ القرآن، ولا ترتيبَه، ولا تأليفَه، ولا معانيه.

فلقد أحسنَ الإمامُ أبو عبدالله حيثُ منعَ من الخوض في

المسألةِ من الطرفين إذْ كلٌّ واحدٍ من إطلاق الخلقية وعدمها على اللفظ موهم، ولم يأتِ به كتابٌ ولا سنةٌ بل الذي لا نرتاب فيه أن القرآن كلامُ الله مُنزَلٌ غيرُ مخلوق. والله أعلم»[١].

وقال ـ رحمه الله ـ: «قال أبو بكر المرُّوذِي في كتاب «القصص»: ورَدَ علينا كتاب من دمشق: سلْ لنا أبا عبدالله، فإنَّ هشامًا، قال: لَفْظُ جبريل عليه السلام، ومحمد ﷺ بالقرآن مخلوق. فسألتُ أبا عبدالله، فقال: أعرفُه طياشًا، لم يَجْتَرِ الكرابيسي أن يذكر جبريل ولا محمدًا. هذا قد تَجَهَّم في كلام غير هذا.

قلتُ: كان الإمامُ أحمد يَسُدُّ الكلامَ في هذا الباب، ولا يُجوِّزه، وكذلك كان يُبدِّع من يقول: لفظي بالقرآن غيرُ مخلوق. ويضلِّل مَنْ يقول: لفظي بالقرآن قديم، ويكفر من يقول: القرآن مخلوق. بل يقول: القرآن كلام الله منزلٌ غيرُ مخلوق، ويَنْهَى عن الخوض في مسألة اللفظ. ولا ريبَ أنْ تلفُّظَنا بالقرآن من كَسْبِنا، والقرآنُ الملفوظُ المتلوُّ كلام الله تعالى غيرُ مخلوق، والتلاوةُ والتلفظُ والكتابةُ والصوت به من أفعالنا، وهي مخلوقة، والله أعلم»[٢].

وقال ـ رحمه الله ـ: «قال الحافظُ أبو عبدِاللهِ بن مَنْدَة في

---

(١) السير (١١/ ٢٩٠).
(٢) السير (١١/ ٤٣٢).

مسألة الإيمان: صَرَّحَ محمدُ بنُ نَصْرٍ في كتاب «الإيمان» بأنَّ الإيمان مخلوق، وأنَّ الإقرار، والشَّهادَة، وقراءَةَ القرآن بلفظه مخلوق. ثُمَّ قال: وَهَجَرَهُ على ذلك علماءُ وَقْتِهِ، وخالفَهُ أَئِمةُ خُرَاسان والعراق.

قلت: الخوضُ في ذلك لا يجوز، وكذلك لا يجوز أَنْ يُقال: الإِيْمانُ، والإقرارُ، والقراءةُ، والتلفُّظُ بالقرآن غيرُ مخلوق، فإنَّ اللهَ خلقَ العِبَادَ وأعمالَهُم، والإيمانُ: فقولٌ وعَمَل، والقراءَةُ والتلفُّظُ: من كَسْبِ القارِئ، والمقروءُ الملفوظ: هو كلامُ اللهِ وَوَحْيُه وتَنْزِيلُه، وهو غير مخلوق، وكذلك كلمة الإيمان، وهي قول «لا إله إلاَّ الله، محمَّدٌ رسولُ الله»، داخلة في القرآن، وما كانَ من القرآن فليسَ بمخلوق، والتكلُّم بها من فِعْلنا، وأفعالُنا مخلوقة، ولو أنَّا كُلَّما أخطأ إمامٌ في اجتهاده في آحاد المسائل خطأً مغفورًا له، قُمْنا عليه، وبدَّعْناه، وهَجَرناه، لما سَلِمَ معنا لا ابنُ نَصْر، ولا ابنُ مَنْدَة، ولا مَنْ هو أكبرُ منهما، واللهُ هو هادي الخَلق إلى الحقّ، وهو أَرْحَمُ الرَّاحمين، فنعوذُ بالله من الهوى والفظاظة»[1].

وقال ـ رحمه الله ـ: «قال محمد بن خلف الخراز: سمعت هشام بن عبدالله الرازي يقول: القرآن كلام الله غير مخلوق،

(١) السير (١٤/ ٣٩-٤٠).

فقال له رجل: أليس الله يقول: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾؟ فقال: محدث إلينا وليس عند الله بمحدث.

قلت: لأنه من علم الله، وعلم الله لا يوصف بالحدث»[١].

وقال: «قال محمدُ بن موسى المصري: سألتُ أحمد بن صالح، فقلتُ: إنَّ قومًا يقولون: إنَّ لفظَنا بالقرآن غيرُ الملفوظ، فقال: لفظنا بالقرآن هو الملفوظُ والحكايةُ هي المحكيُّ، وهو كلامُ اللهِ غيرُ مخلوق، من قال: لفظي به مخلوقٌ فهو كافر.

قلتُ: إن قال: لفظي، وعنى به القرآن، فنَعَم، وإنْ قال لفظي، وقصَدَ به تلفُّظي وصوتي وفعلي إنه مخلوق، فهذا مُصيبٌ، فاللهُ تعالى خالقُنا، وخالقُ أفعالِنا وأدواتِنا. ولكن الكَفُّ عن هذا هو السُّنَّة، ويكفي المرءَ أن يُؤمن بأنَّ القرآن العظيم كلامُ الله ووَحْيه وتنزيله على قلب نبيِّه، وأنه غير مخلوقٍ، ومعلومٌ عند كلِّ ذي ذهنٍ سليم أنَّ الجماعة إذا قرؤوا السورة، أنَّهم جميعَهم قرؤوا شيئًا واحدًا، وأنَّ أصواتهم وقراءاتهم، وحناجرهم أشياءُ مختلفةٌ، فالمقروءُ كلامُ ربِّهم، وقراءتُهم وتلَفُّظهم ونغماتُهم مُتباينة، ومن لم يتصوَّر الفرقَ بين التلفُّظ وبين الملفوظ، فَدَعْهُ وأعرض عنه»[٢].

(١) السير (١٠/ ٤٤٧).
(٢) السير (١٢/ ١٧٧).

وقال: «قال داود بن أحمد: رأيت أسدًا يعرض التفسير، فقرأ ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي ﴾ فقال: ويل أم أهل البدع، يزعمون أن الله خلق كلامًا، يقول: أنا.

قلت: آمنت بالذي يقول: إني أنا الله، وبأن موسى كليمه سمع هذا منه، ولكني لا أدري كيف تكلم الله؟»[١].

وقال: «قال محمد بن الذُّهْلي: ومُسْلم أيضًا نُسِبَ إلى اللّفْظ، ألا تراه كيفَ قَام من مجلس الذُّهْلي على رأي الملأ لمَّا قال: أَلا مَنْ كان يقولُ بقول محمد بنِ إسماعيل، فلا يَقْرَبَنَّا؟ فهذه مسألة مُشْكِلَة، وقد كان أحمدُ بنُ حَنْبل وغيرُه لا يَرَوْن الخوضَ في هذه المسألة، مع أنَّ البخاريَّ ـ رحمه الله ـ ما صرَّح بذلك، ولا قال: ألفاظُنَا بالقُرْآن مَخْلُوقة، بل قال: أفعالُنا مَخْلوقة، والمقروء الملفوظ هو كلامُ الله تَعَالَى، وليس بمخلوقٍ، فالسُّكوت عن تَوَسُّع العبارات أسلم للإنسان»[٢].

وقال حاكيًا قول الذهلي: «القرآنُ كلامُ الله غيرُ مخلوق من جميع جهاته، وحيث تُصُرِّفَ، فمن لزم هذا استغنى عن اللفظ وعمّا سواهُ من الكلام في القرآن، ومن زعم أنَّ القرآنَ مخلوقٌ فقد كفر، وخرج عن الإيمان، وبانت منه امرأتُهُ، يستتاب،

(١) السير (١٠/ ٢٢٧).
(٢) السير (١٥/ ٤٩٤).

فإن تاب، وإلا ضُربت عنقُه، وجُعل مالُه فَيْئًا بين المسلمين ولم يُدْفن في مقابرهِم، ومَن وقف، فقال: لا أقول مخلوق ولا غير مخلوق، فقد ضاهَى الكفر، ومن زعم أنَّ لفظي بالقرآن مخلوق، فهذا مبتدع، لا يُجالَس ولا يُكَلَّم. ومن ذهب بعد هذا إلى محمد بن إسماعيل البخاريِّ فاتهِموه، فإنه لا يحضُر مجلِسَه إلا مَن كان على مثلِ مذهبه.

وقال الحاكم: أخبرنا محمدُ بن أبي الهيثم ببخارى، أخبرنا الفِرَبْرِي، حدثَنا البخاريُّ، قال: نظرتُ في كلامِ اليهودِ والنَّصارى والمجوس، فما رأيتُ أحدًا أَضَلَّ في كفرهم من الجهميَّة، وإني لأستجهل من لا يُكَفِّرُهم.

وقال غُنْجار: حدثنا محمدُ بن أحمد بن حاضِر العَبْسي، حدثنا الفِرَبْري، سمعتُ البخاريَّ يقولُ: القرآنُ كلامُ الله غير مخلوق. ومن قال مخلوق فهو كافر.

وقال الحاكم: حدثنا طاهرُ بنُ محمد الورّاق، سمعتُ محمد ابن شاذِل يقولُ: لما وقع بين محمد بن يحيى والبخاريِّ، دخلتُ على البخاريِّ، فقلتُ: يا أبا عبدالله، أَيْشِ الحِيلةُ لنا فيما بينك وبينَ محمد بن يحيى، كُلُّ من يختلِفُ إليك يُطرَدُ؟ فقال: كم يعتري محمدَ بن يحيى الحسد في العلم. والعلمُ رزقُ الله يُعطيه من يشاء. فقلتُ: هذه المسألةُ التي تُحْكَى عنك؟ قال: يا بني،

هذه مسألةٌ مشؤومةٌ، رأيتُ أحمدَ بن حنبل، وما ناله في هذه المسألة، وجعلتُ على نفسي أن لا أتكلَّم فيها.

قلتُ: المسألةُ هي أنَّ اللفظَ مخلوقٌ، سُئل عنها البخاريُّ، فوقفَ فيها، فلما وقفَ واحتجَّ بأنَّ أفعالنا مخلوقةٌ، واستدلَّ لذلك، فهمَ منه الذهليُّ أنه يُوَجِّه مسألةَ اللفظ، فتكلَّم فيه، وأخذهُ بلازِمِ قولِه هو وغيره. وقد قال البخاريُّ في الحكاية التي رواها غُنْجار في «تاريخه»: حدثنا خلَفُ بن محمد بن إسماعيل، سمعتُ أبا عَمرو أحمدَ بن نصرٍ النيسابوريَّ الخَفَّاف ببخارى يقولُ: كنا يومًا عند أبي إسحاق القيسي، ومعنا محمدُ ابن نصر المَرْوزيُّ، فجرى ذكرُ محمد بن إسماعيل البخاريِّ، فقال محمدُ بن نصر: سمعتُه يقول: من زعم أني قلتُ: لفظي بالقرآن مخلوق فهو كذّاب، فإنِّي لم أَقُله. فقلتُ له: يا أبا عبدالله، قد خاض الناسُ في هذا وأكثروا فيه. فقال: ليس إلا ما أقول. قال أبو عمرو الخَفّاف، فأتيتُ البخاريَّ، فناظرتُه في شيءٍ من الأحاديث حتى طابت نفسُه فقلتُ: يا أبا عبدالله، هاهنا أحدٌ يَحْكِي عنك أنك قُلتَ هذه المقالَة. فقال: يا أبا عمرو، احفظْ ما أقولُ لك: من زعم من أهل نيسابور وقُومس والرَّي وهَمَذان وحلوان وبغداد والكوفة والبصرة ومكة والمدينة أنِّي قلت: لفظي بالقرآن مخلوق فهو كذّاب. فإني لم أقُله، إلا أني قلتُ: أفعالُ العبادِ مخلوقة[1].

(١) هذه الحكاية ضعيفة في سندها أبو صالح خلف بن محمد بن إسماعيل وهو الخيام=

وقال أبو سعيد حاتم بنُ أحمد الكِنْدي: سمعتُ مُسلم بن الحجّاج يقولُ: لمَّا قدم محمد بن إسماعيل نيسابور ما رأيتُ واليًا ولا عالمًا فَعَل به أهلُ نيسابور ما فعلوا به، استقبلوه مرحلتين وثلاثة. فقال محمد بن يحيى في مجلسه: مَن أراد أنْ يستقبل محمدَ بن إسماعيل غدًا فليستقبِله. فاستقبله محمدُ بن يحيى وعامَّةُ العلماء، فنزل دار البخاريين، فقال لنا محمدُ بن يحيى: لا تسألوه عن شيءٍ من الكلام، فإنَّه إن أجاب بخلاف ما نحن فيه، وقع بيننا وبينه، ثم شَمِتَ بنا كلُّ حَرُورِيٍّ، وكلُّ رافضيٍّ، وكل جَهْمي، وكل مُرْجِيء بخراسان. قال: فازدحم الناسُ على محمدِ بن إسماعيل، حتى امتلأ السطحُ والدارُ، فلما كان اليوم الثاني أو الثالث، قام إليه رجلٌ، فسأله عن اللفظِ بالقرآن، فقال: أفعالُنا مخلوقةٌ، وألفاظنا من أفعالِنا. فوقع بينهم اختلافٌ، فقال بعضُ الناس: قال لفظي بالقرآن مخلوق، وقال بعُضهم: لم يقل، حتى تواثبوا، فاجتمع أهلُ الدار، وأخرجُوهم»[(١)].

وقال: «كان الذهلي شديد التمسك بالسنة، قام على محمد ابن إسماعيل لكون أشار في «مسألة خلق العباد» إلى أنَّ تَلَفُّظ القارئ بالقرآن مخلوقٌ، فلوَّح وما صرَّح. والحقُّ أوضح. ولكن أَبَى البحثَ في ذلك أحمدُ بن حنبل، وأبو زُرْعَةَ، والذُّهلِيُّ.

= البخاري، وهو ضعيف.

(١) السير (١٢/ ٤٥٦-٤٥٨).

والتوسع في عبارات المتكلمين سَدًّا للذَّريعة فأحسَنُوا، أحسن الله جزاءهم. وسافر ابنُ إسماعيل مختفيًا من نيسابور، وتألَّم من فعل محمد بنِ يحيى ومازال كلامُ الكبار المُتَعاصرين بعضِهِم في بعض لا يُلْوَى عليه بمفرده. وقد سُقتُ ذلك في ترجمة ابن إسماعيل، رحم الله الجميعَ. وغفر لهم ولنا آمين»[١].

«أخبرنا الإمامُ أبو الحُسين عليُّ بن محمد، أخبرنا جعفرُ بنُ علي، أخبرنا أحمدُ بنُ محمد الحافظ، أخبرنا ثابتُ بنُ بُنْدار، أخبرنا أبو بكر البَرْقاني، قرأنا على أبي العبَّاس بنِ حمدان، حدثكم محمدُ بنُ نُعيم قال: سمعتُ محمدَ بنَ يحيى الذُّهلي يقول: الإيمان قولٌ وعمل، يَزيدُ ويَنْقُص، والقرآنُ كلامُ الله غيرُ مخلوق بجميع جهاته، وحيث تصرف، ولا نرى الكلام فيما أحدثوا فتكلَّموا في الأصواتِ والأقلام والحِبْرِ والورقِ، وما أحدثُوا من المَتْلِيِّ والمُتْلَى والمُقرئ، فكلُّ هذا عندنا بَدعةٌ، ومَنْ زعم أنَّ القرآن محدَثٌ، فهو عندنا جهميٌّ لا يُشَكُّ فيه ولا يُمترَى.

قلتُ: كذا قال: المَتْلِيُّ والمُتْلَى، ومُرادُه المَتليُّ والتِلاوةُ، والمقرئُ والقِراءةُ. ومذهبُ السلف وأئمةِ الدين أنَّ القرآنَ العظيم المُنزَّل كلامُ الله تعالى غيرُ مخلوق، ومذهبُ المعتزلةِ أنَّه مخلوقٌ، وأنَّه كلامُ الله تعالى على حدِّ قولهم: عيسى كلمة

---

(١) السير (١٢/ ٢٨٥).

الله ، وناقة الله ، أي إضافة ملك .

ومذهبُ داود وطائفةٍ أنَّه كلامُ الله ، وأنه مُحْدَثٌ مع قولهم : بأنَّه غيرُ مخلوق .

وقال آخرون من الحنابلة وغيرهم : هو كلامُ الله قديمٌ غير مُحْدَثٌ ، ولا مخلوق . وقالوا : إذا لم يكن مخلوقًا فهو قديمٌ . ونوزعوا في هذا المعنى وفي إطلاقه .

وقال آخرون[1] : هو كلام الله مجازًا ، وهو دالٌّ على القُرآن القديم القائم بالنفسِ

وهُنا بحوثٌ وجدالٌ لا نخوضُ فيها أصلاً . والقولُ هو ما بدأنا به ، وعليه نَصَّ أَزْيَدُ من ثلاث مئة إمام . وعليه امتُحن الإمامُ أحمد ، وضُرِب بالسياط ـ رحمه الله ـ»[2] .

وقال مدافعًا عن إسحق بن أبي إسرائيل : «قال الحسينُ بن إسماعيل الفارسي : سألتُ عُبْدوس بن عبدالله النيسابوري ، عن إسحاق بن أبي إسرائيل ، فقال : كان حافظًا جدًا ، لم يكن مثلُه في الحفظ والورع . قلتُ : كان يُتهم بالوقف؟ قال : نعم .

قلت : أدَّاهُ وَرَعُهُ وجمودُه إلى الوقف لا أنه كان يتجهم . كلا»[3] .

---

(١) الكلابية والأشاعرة ـ كما سبق ـ .

(٢) السير (١٢/ ٢٨٩-٢٩٠) .

(٣) السير (١١/ ٤٧٧) .

قلت : بعد هذه النقول عن الإمام الذهبي ـ رحمه الله ـ يتبين لنا أنه :

١- يقول بقول السلف في أن القرآن كلام الله ـ عز وجل ـ حروفه ومعانيه ، وأنه غير مخلوق .

٢- أنه يستحب عدم الخوض ـ لاسيما في زمانه ـ في مسألة اللفظ ، أي قول «لفظي بالقرآن مخلوق» أو «غير مخلوق» وأن يلزمَ المرءُ السلامة ويكتفي بأن يعلم أن القرآن كلام الله غير مخلوق دون أن يتعمق ، ويميل إلى قول الإمام أحمد في سد هذا الباب خوفًا من ولوج أهل البدع منه .

٣- أنه يعذر من خاض في مسألة «اللفظ» من الأئمة ، وكان قصده صحيحًا ، ويلتمس لهم المعاذير .

* * *

عقيدة الإمام الذهبي في

الصحابة الكرام

- رضي الله عنهم -

مذهب أهل السنة والجماعة في قضية صحابة رسول الله ﷺ يقوم على الآتي :

١- «وجوب محبتهم وتعظيمهم وتوقيرهم وتكريمهم والاحتجاج بإجماعهم والاقتداء بهم، والأخذ بآثارهم، وحرمة بغض أحد منهم لما شرفهم الله به من صحبة رسول الله ﷺ والجهاد معه لنصرة دين الإسلام، وصبرهم على أذى المشركين والمنافقين، والهجرة عن أوطانهم وأموالهم وتقديم حب الله ورسوله ﷺ على ذلك كله، وقد دلت النصوص الكثيرة على وجوب حب الصحابة رضي الله عنهم جميعًا، وقد فهم أهل السنة والجماعة ما دلت عليه النصوص في هذا واعتقدوا ما تضمنته مما يجب لهم من المحبة على وجه العموم رضي الله عنهم وأرضاهم»[١] .

٢- «من حق الصحابة الكرام رضي الله عنهم على كل من جاء بعدهم من عباد الله المؤمنين أن يدعو لهم ويستغفر لهم، ويترحم عليهم، لما لهم من القدر العظيم، ولما حازوه من المناقب الحميدة، والسوابق القديمة، والمحاسن المشهورة، ولما لهم من الفضل الكبير على كل من أتى بعدهم، فهم الذين

---

(١) عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة الكرام رضي الله عنهم، للدكتور ناصر الشيخ (٢/ ٧٥٧). ومن أراد معرفة نصوص الثناء على الصحابة من الكتاب والسنة، أو من أقوال السلف، أو أدلة النقاط التي سأذكرها، فليرجع إلى هذه الرسالة الفريدة.

نقلوا إلى من بعدهم الدين الحنيف الذي أخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور، وقد ندب الله ـ جل وعلا ـ كل من جاء بعدهم من أهل الإيمان إلى أن يدعو لهم، ويترحم عليهم، وأثنى على من استجاب منهم لذلك بقوله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾[1].

فالآية مشتملة على بيان موقف أهل الإيمان ممن تقدمهم من الصحابة، فقد بين ـ تعالى ـ أن موقفهم من أولئك الصفوة أنهم يثنون عليهم، ويدعون لهم ابتهاجًا بما آتاهم الله من الفضل وغبطة لهم فيما وفقوا له من الأعمال المصحوبة بالإخلاص واليقين، وهذ الموقف المبارك ينطبق على أهل السنة والجماعة، فقد وفقهم الله للثناء الجميل والقول الحسن في أصحاب رسول الله ﷺ وهم الذين يترضون عنهم جميعًا ويستغفرون لهم، وحُرم هذا الموقف العظيم الشيعة الرافضة الذين جعلوا رأس مالهم سبهم وبغضهم والحقد عليهم، وهذا خذلان أيما خذلان»[2].

٣- «من عقائد أهل السنة والجماعة أنهم يشهدون لمن شهد

(١) سورة الحشر، الآية: ١٠.

(٢) عقيدة أهل السنة في الصحابة (٢/ ٧٦٦).

له المصطفى ﷺ بالجنة من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ.

فهناك أشخاص أخبر النبي ﷺ أنهم من أهل الجنة، وهناك آخرون أخبر ببعض النعيم المعد لهم في الجنة، وكل ذلك شهادة منه ﷺ لهم بالجنة، وسواء ذكر المصطفى ﷺ الشخص من أهل الجنة أو أخبر أن له كذا أو مكانته في الجنة كذا أو أخبر أنه رآه في الجنة؛ الكل يشهد له أهل السنة والجماعة بالجنة تصديقًا منهم لخبر الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ»[١].

٤- أنهم جميعًا ـ رضي الله عنهم ـ عدول[٢]، لا يُسأل عن عدالتهم بعد أن عدَّلَهم الله في كتابه، وعدَّلَهم رسوله ﷺ، وعلى هذا أجمع أهل السنة نظرًا لما أكرمهم الله به من شرف الصحبة لنبيه ﷺ، ولما لهم من المآثر الجليلة من مناصرتهم للرسول ﷺ والهجرة إليه، والجهاد بين يديه، والمحافظة على أمور الدين، والقيام بحدوده، فشهاداتهم ورواياتهم مقبولة دون تكلف بحث عن أسباب عدالتهم بإجماع من يُعتد بقوله»[٣].

٥- «إن موقف أهل السنة والجماعة من الحرب التي وقعت

(١) المرجع السابق (٢/ ٧٧٥).
(٢) قال الحافظ ابن حجر: «المراد بالعدل من له مَلَكة تحمله على ملازمة التقوى والمروءة، والمراد بالتقوى: اجتناب الأعمال السيئة من شرك أو فسق أو بدعة» (نزهة النظر ص ٢٩).
(٣) عقيدة أهل السنة في الصحابة (٢/ ٨١١).

بين الصحابة الكرام ـ رضي الله عنهم[١] ـ هو الإمساك عما شجر بينهم، إلا فيما يليق بهم ـ رضي الله عنهم ـ، لما يسببه الخوض في ذلك من توليد العداوة والحقد والبغض لأحد الطرفين، وذلك من أعظم الذنوب.

وقالوا: إنه يجب على كل مسلم أن يحب الجميع ويترضى عنهم ويترحم عليهم ويحفظ لهم فضائلهم، ويعترف لهم بسوابقهم، وينشر مناقبهم، وأن الذي حصل بينهم إنما كان عن اجتهاد، والجميع مثابون في حالتي الصواب والخطأ، غير أن ثواب المصيب ضعف ثواب المخطئ في اجتهاده، وأن القاتل والمقتول من الصحابة في الجنة، ولم يجوز أهل السنة والجماعة الخوض فيما شجر بينهم»[٢].

هذا ملخص ما عليه أهل السنة والجماعة تجاه صحابة رسول الله ﷺ أقدمه بين يدي نصوص الإمام الذهبي في هذا الموضوع ليكون مقياسًا لها.

○ أقوال الذهبي في هذا الموضوع:

قال ـ رحمه الله ـ: «كلامُ الأقرانِ إذا تبرهنَ لنا أنَّه بهوىً وعَصَبِيَّة، لا يُلتَفتُ إليه، بل يُطوى، ولا يُروى، كما تقرَّر عن

(١) وهي حرب (الجمل) وحرب (صفين).
(٢) المرجع السابق (٢/ ٧٢٧).

الكفُّ عن كثيرٍ مما شَجَرَ بين الصحابةِ وقتالِهم ـ رضي اللهُ عنهم أجمعين ـ. ومازال يَمُرُّ بنا ذلك في الدواوين والكتب والأجزاء، ولكن أكثر ذلك منقطعٌ وضعيفٌ، وبعضُه كَذِبٌ، وهذا فيما بأيدينا وبينَ عُلمائِنا، فينبغي طَيُّه وإخفاؤُه، بل إعدامُهُ لتَصفُوَ القلوبُ، وتتوفَّرَ على حُبِّ الصحابة، والترضِّي عنهم، وكِتمانُ ذلك مُتَعيِّنٌ عن العامة وآحادِ العُلماء، وقد يُرَخَّصُ في مطالعةِ ذلك خلوةً للعالم المُنصِفِ العَرِيِّ من الهوى، بشرطِ أن يستغفِرَ لهم، كما علمنا اللهُ تعالى حيثُ يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[1].

فالقومُ لهم سوابق، وأعمالٌ مُكفِّرةٌ لِما وقع منهم، وجهادٌ مَحّاءٌ، وعِبادةٌ مُمَحِّصةٌ، ولسنا ممن يغلو في أحدٍ منهم، ولا ندَّعي فيهم العِصمَة، نقطعُ بأنَّ بعضَهم أفضلُ من بعض، ونقطعُ بأنَّ أبا بكر وعُمر أفضلُ الأمة، ثم تتمة العشرةِ المشهود لهم بالجنة، وحمزة وجعفر ومعاذ وزيد، وأمهات المؤمنين، وبنات نبيِّنا ﷺ، وأهل بدر مع كونهم على مراتب، ثم الأفضلُ بعدهم مثلُ أبي الدرداء وسلمان الفارسي وابنِ عُمر وسائرِ أهلِ بَيْعَةِ الرضوانِ الذين رضي اللهُ عنهم بنصِّ آيةِ سورة الفتح[2]، ثم

(١) سورة الحشر، الآية: ١٠.

(٢) وهي الآية رقم (١٨)، ونصُّها: ﴿ ۞ لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ=

عموم المهاجرين والأنصار كخالدِ بن الوليد والعباس وعبدالله ابن عمرو، وهذه الحَلْبَة، ثم سائر مَن صحبَ رسول الله ﷺ وجاهدَ معه، أو حجَّ معه، أو سمعَ منه، رضي اللهُ عنهم أجمعين وعن جميع صواحب رسولِ الله ﷺ المهاجراتِ والمدنيات وأُمِّ الفضل وأُمِّ هانئ الهاشميةِ وسائِر الصحابيات.

فأمّا ما تنقُله الرافضةُ وأهلُ البِدَع في كُتُبِهم من ذلك، فلا نُعَرِّجُ عليه، ولا كرامةَ، فأكثرهُ باطلٌ وكَذِبٌ وافتراءٌ، فدأبُ الروافض روايةُ الأباطيل، أو ردُّ ما في الصحاحِ والمسانيدِ، ومتى إفاقَةُ مَن بِه سَكَران؟!

ثم قد تكلَّم خلقٌ من التابعين بعضُهم في بعض، وتحاربوا، وجرت أمورٌ لا يُمكنُ شرحُها، فلا فَائدة في بثِّها، ووقع في كُتب التواريخ وكتبِ الجرح والتعديل أمورٌ عجيبةٌ، والعاقِلُ خصمُ نفسِه، ومِن حُسْنِ إسلامِه تركه ما لا يعنيه»[1].

وقال: «أعاذنا الله من الفتن، ورضي عن جميع الصحابة، فترضَّ عنهم يا شيعي تُفلح، ولا تدخل بينهم، فالله حَكم عدل، يفعل فيهم سابق علمه، ورحمته وسعت كل شيء،

= ﴿ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾. وكانت عدة الذين شهدوا هذه البيعة ألفًا وخمس مئة كما في «الصحيحين»، وانظر: «زاد المعاد» ٣/ ٢٨٧.

(١) السير (١٠/ ٩٢-٩٤).

وهو القائل: «**إن رحمتي سبقت غضبي**»[١]، و ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾[٢] فنسأل الله أن يعفو عنا، وأن يثبتنا بالقول الثابت، آمين»[٣].

وقال: «سبيلنا الكف والاستغفار للصحابة، ولا نحب ما شجر بينهم، ونعوذ بالله منه»[٤].

وقال: «مَنْ سكت عن ترحُّم مثل الشَّهيد أمير المؤمنين عثمان، فإنّ فيه شيئًا من تَشَيُّع، فمن نطق فيه بِغَضٍّ وتَنَقُّصٍ وهو شِيعي جَلْد يُؤدَّب، وإن تَرَقَّى إلى الشَّيخين بذم، فهو رافضي خبيث، وكذا من تعرَّض للإمام علي بذم، فهو ناصبي يُعَزَّر، فإن كفَّره، فهو خارجي مارق، بل سبيلُنا أن نستغفرَ للكل ونحبَّهم، ونكفَّ عما شجر بينهم»[٥].

وقال عن اتهام شريك القاضي بالتشيع: «قلت: هذا التشيُّع الذي لا محذورَ فيه إن شاء الله إلا من قبيل الكلام فيمن حاربَ عليًّا رضي الله عنه من الصحابة، فإنه قبيحٌ يُؤدَّب فاعِلُه. ولا نذكر أحدًا من الصحابة إلا بخير، ونترضَّى عنهم، ونقول:

---

(١) أخرجه البخاري (١٣/ ٣٢٥).
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٢٣.
(٣) السير (٣/ ٢٧٩).
(٤) السير (٣/ ٣٩).
(٥) السير (٧/ ٣٧٠).

هم طائفةٌ من المؤمنين بَغَتْ على الإمام عليٍّ، وذلك بنص قولِ المصطفى صلوات الله عليه لعمَّار: «**تَقْتُلُكَ الفِئَةُ الباغِيَةُ**»[١].

فنسأل الله أن يرضى عن الجميع، وألا يجعلنا ممن في قلبه غل للمؤمنين، ولا نرتاب أن عليًّا أفضل ممن حاربه، وأنه أولى بالحق رضي الله عنه»[٢].

وقال: «روى أبو داود الرهاوي أنه سمع شريكًا يقول: علي خير البشر، فمن أبى فقد كفر، قلت: ما ثبت هذا عنه. ومعناه حق: يعني: خير بشر زمانه، وأما خيرهم مطلقًا، فهذا لا يقوله مسلم»[٣].

وقال في ترجمة عبدالرزاق الصنعاني صاحب المصنف، وهو ممن لابس شيئًا يسيرًا من التشيع ـ عفى الله عنه ـ: «قال العُقَيليُّ: سمعتُ عليَّ بنَ عبدالله بنِ المبارك الصَّنْعاني يقولُ: كان زيدُ بن المبارك، قد لزم عبدَالرَّزَّاق، فأكثر عنه، ثم خَرَق كُتُبه، ولزم محمد بن ثَوْر، فقيل له في ذلك، فقال: كنا عند عبدِ الرَّزاق، فحدثنا بحديثِ مَعْمر، عن الزُّهْريِّ، عن مالكِ بن أَوْس بن الحَدَثان... الحديث الطويل، فلمَّا قرأ قولَ عُمَرَ لعليٍّ والعبَّاس: فجئتَ أنت تطلُبُ ميراثَكَ من ابنِ أخيك،

(١) أخرجه مسلم (٢٩١٦).
(٢) السير (٨/ ٢٠٩-٢١٠).
(٣) السير (٨/ ٢٠٥).

وجاء هذا يطلبُ ميراثَ امرأتِه، قال عبدُالرّزّاق: انظروا إلى الأنوك، يقولُ: تطلبُ أنتَ ميراثَكَ من ابنِ أخيك، ويطلبُ هذا ميراثَ زوجتِه من أبيها، لا يقول: رسول الله ﷺ. قال زيدُ بنُ المبارك: فلم أَعُدْ إليه، ولا أروي عنه.

قلت: هذه عظيمةٌ، وما فهم قولَ أميرِ المُؤمنين عُمر، فإنّكَ يا هذا لو سَكَتَّ، لكان أولى بك، فإنَّ عُمر إنما كان في مقام تبيين العُمُومة والبُنُوَّة، وإلا فعُمرُ رَضي اللهُ عنه أَعلمُ بحقِّ المصطفى وبتوقيرِه وتعظيمهِ من كُلِّ مُتَحذْلِقٍ متنطِّع، بل الصَّوابُ أن نقول عنك: انظروا إلى هذا الأَنْوك الفاعل ـ عفا اللهُ عنه ـ كيف يقولُ عن عُمَرَ هذا، ولا يقولُ: قال أميرُ المؤمنين الفاروق؟! وبكُلِّ حالٍ فنستغفرُ اللهَ لنا ولعبدِالرزاق، فإنه مأمون على حديث رسول الله ﷺ صادق»[(١)].

وقال: «رضي الله عن جميع الصحابة»[(٢)].

وقال عن قولة أحدهم: «من لم يبرأ في صلاته كل يوم من أعداء آل محمد حشر معهم».

«قلت: هذا الكلام مبدأ الرفض، بل نكف ونستغفر للأمة، فإن آل محمد في إياهم قد عادى بعضهم بعضًا، واقتتلوا على

---

(١) السير (٩/ ٥٧٢-٥٧٣).
(٢) السير (١٠/ ٤٣٢).

الملك وتمت عظائم، فمن أيهم نبرأ؟!»[١].

وقال عن قول الرسول ﷺ لعلي ـ رضي الله عنه ـ: «**لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق**»[٢]: «معناه أنَّ حُبَّ عليٍّ من الإيمان، وبُغْضَه من النِّفاق، فالإيمان ذو شُعَب، وكذلك النفاق يَتَشَعَّب، فلا يقول عاقل: إن مجرَّد حُبِّه يصير الرجل به مؤمنًا مُطْلَقًا، ولا بمجرد بُغضه يصيرُ به الموحِّد منافقًا خالصًا. فمن أحبَّه وأبغض أبا بكر، كان في منزلة من أبغضه، وأحبَّ أبا بكر، فبُغضهُما ضَلالٌ ونفاق، وحبُّهما هُدًى وإيمان، والحديث ففي «صحيح» مسلم»[٣].

وقال: «ليس تفضيل علي برفض ولا هو ببدعة: بل قد ذهب إليه خلق من الصحابة والتابعين، فكلٌّ من عثمان وعلي ذو فضل وسابقة وجهاد وهما متقاربان في العلم والجلالة، ولعلَّهما في الآخرة مُتساويان في الدَّرجة، وهما من سادة الشُّهداء رضي الله عنهما، ولكنّ جمهور الأمة على ترجيح عثمان على الإمام عليّ وإليه نذهب. والخطب في ذلك يسير، والأفضل منهما بلا شكٍّ أبو بكر وعمر، مَن خالف في ذا فهو شِيعيٌّ جلد، ومَن أَبغض الشَّيخين واعتقد صحَّة إمامتهما فهو رافضي مقيت،

---

(١) السير (١١/ ٥٣٧-٥٣٨).
(٢) أخرجه مسلم (٧٨).
(٣) السير (١٢/ ٥١٠).

ومن سبَّهما واعتقد أنهما ليسا بإمامي هُدى فهو من غُلاة الرَّافضة، أبعدَهم الله»[١].

وقال: «كل من أحب الشيخين فليس بغالٍ، بلى من تعرض لهما بشيء من تنقص فإنه رافضي غالٍ، فإن سب فهو من شرار الرافضة، فإن كفَّر فقد باء بالكفر واستحق الخزي»[٢].

وقال: «فمولانا الإمام علي: من الخلفاء الراشدين، المشهود لهم بالجنة ـ رَضي الله عنه ـ فحبه أشد الحب، ولا ندعي عصمته، ولا عصمة أبي بكر الصديق»[٣].

ولما قال عمارة اليمني في العبيديين:

أفاعيلهم في الجود أفعال سُنة وإن خالفوني في اعتقاد التشيعِ

قال الذهبي: «يا ليته تشيع فقط، بل يا ليته ترفض، وإنما يقال هو انحلال وزندقة»[٤].

قال الذهبي: «شعبة، عن منصور بن عبدالرحمن، سمعت الشَّعبي يقول: أدركت خمس مئة أَو أكثر من الصحابة يقولون: عليٌّ، وعثمان، وطلحة، والزبير في الجنة.

(١) السير (١٦/ ٤٥٧-٤٥٨).
(٢) السير (١٤/ ٥١١).
(٣) السير (١٣/ ١٢٠).
(٤) السير (٢٠/ ٥٩٦).

قلت: لأنهم من العشرة المشهود لهم بالجنة، ومن البدريين، ومن أهل بيعة الرضوان، ومن السابقين الأوّلين الذين أَخبر تعالى أنه رضي عنهم ورضوا عنه، ولأن الأربعة قُتِلوا، ورزقوا الشهادة، فنحن مُحبُّون لهم، باغضون للأربعة الذين قَتَلوا الأربعة»[١].

ويقول في ترجمة الصحابي الجليل مسطح بن أثاثة ـ رضي الله عنه ـ: «إياك يا جري أن تنظر إلى هذا البدري شزرًا لهفوة بدت منه، فإنها قد غُفرت، وهو من أهل الجنة، وإياك يا رافضي أن تُلوح بقذف أم المؤمنين بعد نزول النص في براءتها، فتجب لك النار»[٢].

وقال في خصوص معاوية ـ رضي الله عنه ـ: «قال الوزير ابنُ حِنْزابة: سمعتُ محمدَ بنَ موسى المَأمونيّ ـ صاحب النَّسائي ـ قال: سمعتُ قومًا يُنكرون على أبي عبدالرَّحمن النَّسائي كتاب: «الخصائص» لعليّ رضي الله عنه، وتركَهُ تصنيف فضائل الشَّيْخَيْن، فذكرتُ لُه ذلك: فقال: دخلتُ دمشقَ والمُنْحَرِفُ بها عن عليٍّ كثير، فصنَّفت كتاب: «الخصائص»، رجوتُ أنْ يهديَهُمُ اللهُ تعالى. ثم إنَّه صنَّفَ بعد ذلك فضائل الصَّحابَة، فقيل له وأنا أسمع: ألا تخرجُ فضائلَ معاويةَ رضي الله عنه؟ فقال: أيّ شيء

(١) السير (١/ ٦٢).
(٢) السير (١/ ١٨٨).

أُخرج؟ حديث: «اللهُمَّ! لا تُشْبعْ بَطْنَه»(١). فَسَكت السَّائل.

قلت: لعلَّ أن يقال: هذه مَنْقَبَةٌ لمعاويةَ لقوله ﷺ «اللهمَّ! مَنْ لَعَنْتُهُ أَوْ سَبَبْتُهُ فاجْعَلْ ذَلِكَ لَهُ زكاةً وَرَحْمَةً»(٢)»(٣).

وقال: «وخلَّف معاويةَ خلقٌ كثير يُحبونه ويَتَغالونَ فيه ويُفضِّلونُه، إمَّا قد ملكهم بالكرم والحلم والعطاء، وإمَّا قد وُلدوا في الشام على حُبِّه، وتَرَبَّىٰ أولادهم على ذلك. وفيهم جماعةٌ يسيرةٌ من الصحابة، وعددٌ كثيرٌ من التابعين والفُضَلاء، وحاربوا معه أهلَ العراق، ونشؤوا على النَّصْب، نعوذُ بالله من الهوى. كما قد نشأ جيش عليٍّ رضي الله عنه، ورعيَّته ـ إلا الخوارج منهم ـ على حُبِّه والقيام معه، وبُغض من بغى عليه والتبري منهم، وغلا خلق منهم في التشيع. فبالله كيفَ يكونُ حالُ من نشأ في إقليم، لا يكاد يُشاهد فيه إلاَّ غاليًا في الحب، مُفرطًا في البغض، ومن أيْنَ يقعُ له الإنصافُ والاعتدال؟ فنحمدُ الله على العافية الذي أوجدنا في زمانٍ قد انمحص فيه الحقُّ، واتَّضحَ من الطرفين، وعرفْنا مآخذَ كل واحد من الطائفتين، وتبصرنا، فعذرْنا، واستغفَرْنا، وأحببْنا باقتصاد، ترحَّمْنا على البُغاة بتأويلٍ سائغ في الجملة، أو بخطأٍ إن شاء الله مغفورٍ،

(١) أخرجه مسلم (٢٦٠٤).
(٢) أخرجه مسلم (٢٦٠٠).
(٣) السير (١٤/ ١٢٩-١٣٠).

وقلنا كما علّمنا الله: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾[١] وترضّينا أيضًا عمن اعتزل الفريقين، كسعد بن أبي وَقّاص، وابنِ عُمر، ومحمد بنِ مسلمة، وسعيد بن زيد، وخلق. وتبرأنا من الخوارج المارقين الذين حاربوا عليًّا، وكفّروا الفريقين. فالخوارجُ كلابُ النار، قد مَرَقُوا من الدين، ومع هذا فلا نقطع لهم بخلود النار[٢] كما نقطع به لعَبدة الأصنام والصلبان»[٣].

* وهو يرى أن خديجة ـ رضي الله عنها ـ أفضل من عائشة ـ رضي الله عنها ـ.

قال ـ رحمه الله ـ عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «وكانت امرأة بيضاء جميلةً. وَمِن ثَمَّ يقال لها: الحُميراء. ولم يتزوج النبيُّ ﷺ بِكرًا غيرها، ولا أحبَّ امرأةً حُبها. ولا أعلمُ في أمة محمد ﷺ، بل ولا في النساء مُطلقًا، امرأةً أعلم منها. وذهب بعضُ العلماء إلى أنها أفضلُ مِن أبيها. وهذا مردود، وقد جعل اللهُ لكل شيء قدرًا، بل نَشهدُ أنها زوجةُ نبيِّنا ﷺ في الدنيا والآخرة، فهل فوق ذلك مَفخر، وإن كان للصديقة خديجة شأوٌ لا يُلحقُ،

---

(١) سورة الحشر، الآية: ١٠.

(٢) لأنه لم يرد نصٌ صريح بكفرهم، وهو الراجح من أقوال العلماء، واختاره شيخ الإسلام. ويرى آخرون كفرهم لقوله ﷺ في الحديث عنهم: «يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميّة». انظر: «الخوارج» للدكتور غالب عواجي (ص ٥٢٧).

(٣) السير (٣/ ١٢٨).

وأنا واقفٌ في أيَّتِها أفضل. نعم جزمتُ بأفضلية خديجةَ عليها لأمور ليس هذا موضِعهَا»[١].

قلت: هذه المسألة مما اختلف فيه السلف ـ رحمه الله ـ ولعل الأرجح فيها ما قاله شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ:

قلت: بعد هذه النقول الكثيرة عن الإمام الذهبي في هذا الموضوع، يتبين لنا أنه موافق لمذهب أهل السنة موافقةً «تامة» في محبة (جميع) الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ، وتفضيلهم على غيرهم، وتعظيمهم، والكف عما شجر بينهم، وترتيب فضل الخلفاء الراشدين الأربعة كترتيبهم في الخلافة، وعدم حمل الإحن والضغينة على بعضهم؛ كمعاوية وعمرو ـ رضي الله عنهما ـ فرحمه الله ورضي عنه.

***

(١) السير (٢/ ١٤٠).

موقف الإمام الذهبي من أهل البدع

نظرًا لعقيدة الذهبي السلفية، وحرصه الشديد - كما رأينا - على اتباع الكتاب والسنة في الأصول والفروع فإنه حتمًا سيكون من المبغضين الشانئين لأهل البدع - بشتى أصنافهم - ممن لم يسلك هذا المسلك، بل انحرف عنه.

وإليك شيئًا من أقواله - رحمه الله - في التشنيع على أهل البدع، وأقوالهم، وأعيانهم.

○ ذمه لعلمُ الكلام والفلسفة والمعتزلة:

قال - رحمه الله -: «فوالله لأنْ يعيش المسلمُ جاهلاً خَلْفَ البقر، لا يعرف من العلم شيئًا سِوى سُوَرٍ من القرآن يصلي بها الصلوات، ويؤمن بالله واليوم الآخر - خيرٌ له بكثير من هذا العِرفان وهذه الحقائق، ولو قرأ مئةَ كتاب، أو عمل مئةَ خلوة»[1].

وقال: «فَلأَنْ يعيشَ المسلمُ أخرسَ أبْكَمَ خيرٌ من أن يمتلئ باطنُهُ كلامًا وفلسفة»[2].

وقال: «إن من البلاء أن تعرف ما كنت تُنكِر، وتُنكِر ما كُنتَ تعرف، وتُقَدَّم عقولَ الفلاسفة، ويُعزل منقولُ أتباع الرُّسُلِ، ويُمارى في القرآن، ويُتَبَرَّم بالسُّنَنِ والآثار، وتقع في الحَيْرَة! فالفرارَ قبل حُلول الدمارِ، وإياكَ ومضلاتِ الأهواء، ومجاراة

(١) الميزان (٣/ ٦٦٠).
(٢) السير (٢١/ ٣٦).

العقول، ومن يعتصم بالله فقد هُديَ إلى صراط مستقيم»[١].

وقال في ترجمة الدارقطني: «لم يدخل الرجل أبدًا في علم الكلام ولا الجدال، ولا خاض في ذلك بل كان سلفيًا»[٢].

ويعلق على قول الإمام أحمد عن أحدهم بأنه: «لم يكن صاحب كلام».

«قلت: هكذا كان أئمة السلف، لا يرون الدخول في الكلام، ولا الجدال، بل يستفرغون وسعهم في الكتاب والسنة، والتفقه فيهما، ويتبعون ولا يتنطعون»[٣].

وقال ـ رحمه الله ـ في ترجمة الدارمي صاحب «الرد على المريسي»: «ومِن كلام عُثمان ـ رحمه الله ـ في كتاب «النَّقض» له: اتفقتِ الكلمةُ من المسلمين أنَّ الله تعالى فوق عَرْشه، فوقَ سَماواته.

قلتُ: أوضح شَيء في هذا البَاب قولُه عَزَّ وجلَّ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[٤]. فَلْيُمَر كما جَاء، كما هُوَ مَعْلوم من مَذهب السَّلَف، ويُنهى الشَّخص عن المراقبة والجدال، وتأويلات

(١) تذكرة الحفاظ (١/ ٣٢٩).

(٢) السير (١٦/ ٤٥٧).

(٣) السير (١٢/ ١٢٠).

(٤) سورة طه، الآية: ٥.

المُعْتَزِلَة، ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾[١]»[٢].

○ ذمه للرافضة:

قال ـ رحمه الله ـ: «قال ابن فُضَيل، عن سالم بن أبي حفصة: سألتُ أبا جعفر وابنَه جعفرًا عن أبي بكر وعُمَر، فقالا لي: يا سالمُ، تولَّهُمَا وابرأْ من عدوِّهما، فإنَّهُما كانا إمامَيْ هدى[٣].

كان سالمٍ فيه تَشَيُّعٌ ظاهر، ومع هذا فَيبُثُّ هذا القولَ الحقّ؛ وإنما يَعْرفُ الفضلَ لأهْلِ الفضلِ ذو الفَضْلِ، وكذلك ناقلُها ابنُ فضيل، شيعيٌّ ثقة. فَعثَّر اللهُ شيعةَ زَمَانِنا ما أغْرَقَهُمْ في الجَهْلِ والكذب، فينالون من الشَّيْخَيْن وزِيري المصطفى ﷺ، ويحملون هذا القَوْلَ مِنَ الباقِرِ والصادق على التقيَّة»[٤].

وقال في الوزير الرافضي (ابن العلقمي): «وكانت دولته أربع عشرة سنة فأفشى الرَّفْض فعارضه السُّنّة، وأُكْبِتَ، فَتَنَمَّر، ورأى أن هولاكو على قصد العراق فكاتبه وجَسَّرَهُ وقوّي عزَّمه على قصد العراق، ليتخذ عنده يدًا، وليتمكن من أغراضه، وحَفَر للأُمة قَلِيْبًا فأُوقع فيه قريبًا، وذاق الهوان، وبقي يركب

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٥٣.

(٢) السير (١٣/ ٣٢٥).

(٣) ابن عساكر ١٥/ ٣٥٥ ب، وانظر: ابن سعد ٥/ ٣٢١.

(٤) السير (٤/ ٤٠٢-٤٠٣).

كديشًا وحدَه، بعد أن كانت ركبته تُضاهي موكبَ سُلطان، فمات غَبْنًا وغمًّا، وفي الآخرة أشدَّ خِزيًا وأشدَّ تنكيلاً.

وكان أبو بكر ابن المستعصم والدويدار الصغير قد شدَّا على أيدي السُّنّة حتى نُهِبَ الكَرْخ، وتمَّ على الشيعة بلاءٌ عظيم، فحنق لذلك مؤيد الدين بالثأر بسيف التتار من السُّنّة، بل ومن الشيعة واليهود والنصارى، وقُتل الخليفة ونحو السبعين من أهل العقد والحل، وبُذِل السيف في بغداد تسعة وثلاثين نهارًا حتى جرت سيول الدماء وبقيت البلدة كأمس الذاهب، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وعاش ابن العَلْقَمِيّ بعد الكائنة ثلاثة أشهر، وهلك»[١].

وقال في ترجمة عبيد الله المهدي أول خليفة للدولة العبيدية الرافضة ـ المسماة زورًا بالفاطمية ـ: «أول من قام من الخلفاء الخوارج العبيدية الباطنية الذين قلبوا الإسلام، وأعلنوا الرفض، وأبطنوا مذهب الاسماعيلية، وبثوا الدعاة، يستغوون الجبلية والجهلة»[٢].

وقال عن الدولة العبيدية: «قبح الله دولةً أماتت السنة ورواية الآثار النبوية، وأحيت الرفض والضلال، وبثت دعاتها في

(١) السير (٢٣/ ٣٦٢).
(٢) السير (١٥/ ١٤١).

النواحي تغوي الناس، ويدعونهم إلى نِحلة الاسماعيلية، فبهم ضلت جبلية الشام وتعثروا، فنحمد الله على السلامة في الدين»[١].

وقال: «لقد لقي المسلمون من الدولة العبيدية والمغاربة أعظم البلاء في النفس والمال والدين، فالأمر لله»[٢].

وقال: «لا يوصف ما قلبت هؤلاء العبيدية الدين ظهرًا لبطن، واستولوا عَلى المغرب، ثم على مصر والشام، وسبوا الصحابة»[٣].

وقال: «ضاع أمر الإسلام بدولة بني بويه، وبني عبيد الرافضة، وتركوا الجهاد، وهاجت نصارى الروم، وأخذوا المدائن، وقتلوا وسبَوا»[٤].

وقال: «لقد جرى علَى الإسلام في المئة الرابعة بلاء شديد بالدولة العبيدية بالمغرب، وبالدولة البويهية بالمشرق، وبالأعراب القرامطة، فالأمر لله تعالى»[٥].

---

(١) السير (١٨/ ٤٩٧).
(٢) السير (١٧/ ٥٥).
(٣) السير (١٦/ ١٤٩).
(٤) السير (١٦/ ٢٣٢).
(٥) السير (١٦/ ٢٥٢).

○ ذمه للخوارج:

قال ـ رحمه الله ـ: «أبو بكر بن عياش: حدثنا سليمان، عن الحسن قال: لما ظفر عليٌّ بالجمل، دخلَ الدار والناسُ معه، فقال عليٌّ: إني لأعلمُ قائد فتنة دخل الجنة، وأَتباعه إلى النار! فقال الأحنف: من هو؟ قال: الزبير.

وفي إسناده إرسال، وفي لفظه نكارة، فمعاذ الله أَن نشهد على أَتباع الزبير، أَو جند معاوية أَو عليٍّ بأَنهم في النار، بل نُفوِّض أمرهم إلى الله، ونستغفر لهم. بلى: الخوارجُ كلابُ النار، وشر قتلى تحت أَدِيْم السماء، لأنهم مَرَقُوا من الإسلام، ثم لا ندري مصيرهُم إلى ماذا، ولا نحكم عليهم بخلود النار، بل نقف»[١].

○ ذمه للمرجئة:

قال ـ رحمه الله ـ: «قال هارون بن عبدالله الحمال: ما رأيت أخشع لله من وكيع، وكان عبدالمجيد أخشع منه.

قلتُ: خُشوعُ وكيعٍ مع إمامته في السُّنَّة جعلهُ مُقَدَّمًا، بخلافِ خشوعِ هذا المُرجىء ـ عفا الله عنه ـ أعاذنا اللهُ وإيَّاكم من مخالفة السُّنَّةِ، وقد كان على الإرجاءِ عددٌ كثيرٌ من علماءِ الأُمَّة، فهلاَّ عُدَّ مذهبًا، وهو قولهم: أنا مؤمنٌ حقًّا عندَ اللهِ الساعةَ، مع

(١) السير (١/ ٦٣).

اعترافِهم بأنَّهم لا يَدرونَ بما يموتُ عليه المسلمُ من كفرٍ أو إيمانٍ، وهذه قولةٌ خفيفةٌ، وإنما الصَّعبُ من قولِ غُلاة المُرجئة: إنَّ الإيمان هو الاعتقادُ بالأفئدة، وإنَّ تاركَ الصلاةِ والزكاةِ، وشاربَ الخمر، وقاتلَ الأنفس، والزّاني، وجميعَ هؤلاء يكونونَ مُؤمنين كاملي الإيمان، ولا يَدخلونَ النَّار، ولا يُعذَّبون أبدًا، فرَدُّوا أحاديثَ الشَّفاعةِ المُتواترةِ، وجَسَّروا كُلَّ فاسقٍ وقاطعِ طريقٍ على الموبقات، نعوذُ بالله من الخذلان»[١].

وقال: «قال معمر: قلتُ لحماد: كنتَ رأسًا، وكنتَ إمامًا في أصحابك، فخالفتهم فصِرت تابعًا، قال: إني أن أكون تابعًا في الحقِّ خيرٌ من أكونَ رأسًا في الباطل.

قلتُ: يشير معمر إلى أنه تحول مُرجئًا إرجاء الفقهاء، وهو أنهم لا يعدون الصلاة والزكاة مِن الإيمان، ويقولون: الإيمان إقرار باللسان، ويقين في القلب، والنزاع على هذا لفظي إن شاء الله، وإنما غُلُوُّ الإرجاء من قال: لا يضرُّ مع التوحيد تركُ الفرائض، نسأل الله العافية»[٢].

***

(١) السير (٩/ ٤٣٥-٤٣٦).
(٢) السير (٥/ ٢٣٣).

○ ذمه لغلاة «المتصوفة» ومبتدعتهم:[١]

أما غلاة الصوفية فقد شن الإمام الذهبي - رحمه الله - عليهم الغارات تلو الغارات، ونصحهم، وحذر المسلمين من مذاهبهم الباطلة التي تدور حول «وحدة الوجود» و «الاتحاد» - والعياذ بالله -.

وكذا حذر - رحمه الله - من مبتدعة الصوفية الذين اخترعوا عبادات ومجاهدات ما أنزل الله بها من سلطان، كعمل الخلوات، والدعوة إلى الجوع وتعذيب النفس، وعدم أكل الحلال... إلخ، خزعبلاتهم.

وإليك شيئًا من أقواله في الطائفتين:

قال - رحمه الله - معلقاً على مقولة (القرميسيني): «عِلْمُ الفَنَاء والبَقَاء يدور على إخلاص الوَحْدانية، وصحَّة العبوديَّة، وما كان هذا فهو من المُغَالطة والزَّنْدقة.

قلتُ: صَدَقتَ والله، فإنَّ الفَنَاء والبَقَاء من تُرَّهات الصُّوفيَّة، أطلقَه بعضُهم، فَدَخَل من بابه كلُّ إلحادي زنديق، وقالوا: ما سوى الله باطلٌ فانٍ، والله تعالى هو الباقي، وهو هذه الكائنات، وما ثَمَّ شيء غيره.

---

(١) جميع الصوفية مبتدعة! ولكن الإمام الذهبي أحسن الظن بهذا اللفظ «التصوف» فادعى أنه قد يكون موافقًا للكتاب والسنة إذا انضبط بهما - كما سيأتي -.

يقول شاعرهم:

وما أنت غيرَ الكون   بـل أنـتَ عَيْنُـه

ويقول الآخر:

وما ثَمَّ إلا اللهُ ليس سواه ....

فانظرْ إلى هذا المروق والضَّلال، بل كلُّ ما سوى الله محدَثٌ موجود. قال الله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾[(١)].

وإنما أراد قُدَماء الصُّوفيةِ بالفَنَاء نسيان المخلوقات وتركها، وفناء النَّفس عن التَّشاغُل بما سوى الله، ولا يُسلَّمُ إليهم هذا أيضًا، بل أمرنا اللهُ ورسولُه بالتَّشاغل بالمخلوقات ورؤيتها والإقبال عليها، وتعظيم خالِقها، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾[(٢)]، وقال: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[(٣)].

وقال عليه السلام: «حُبِّبَ إليَّ النِّساء والطِّيب»[(٤)].

---

(١) سورة السجدة، الآية: ٤.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٨٥.

(٣) سورة يونس، الآية: ١٠١.

(٤) أخرجه النسائي ٧/ ٦١ في أول عشرة النساء، وأحمد ٣/ ١٢٨ و ١٩٩ و ٢٨٥ من طرق عن سلام أبي المنذر، عن ثابت، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «حبب إليّ من الدنيا النساء والطيب، وجعل قرة عيني في الصلاة» وهذا سند قوي، وصححه الحاكم.

وقال: «كأنك علمتَ حُبَّنا للحم».

وكان يحِبُّ عائشة، ويحبُّ أباها، ويحبُّ أُسامة، ويحبُّ سِبْطَيْه، ويحبّ الحَلْواء، والعَسَل، ويحبّ جَبَل أُحُد، ويحبُّ وَطَنه، ويحبُّ الأَنْصار، إلى أشياء لا تحصى مما لا يغني المؤمن عنها قطُّ»[1].

وقال في ترجمة الحلاج: «وحُكي عنه أنَّه رُؤيَ واقفًا في الموقف، والناس في الدُّعاء، وهو يقول: أنزِّهك عمَّا قَرَفَكَ به عبادُك، وأبرأ إليكَ ممّا وحَّدك به الموحِّدون»!!

«قلت: هذا عينُ الزَّنْدَقَة، فإنَّهُ تبرَّأ ممَّا وحَّد اللهَ به الموحِّدون الذين هم الصَّحابةُ والتابعونَ وسائرُ الأمَّة، فهل وحَّدوه تعالى إلاَّ بكلمة الإخلاص التي قال رسولُ الله ﷺ: «**مَنْ قَالَهَا مِنْ قَلْبِهِ، فَقَدْ حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُه**»[2] وهي: شهادةُ أنْ لا

= تنبيه: يزيد بعضهم بعد قوله: «حبب إلي من الدنيا» لفظ: ثلاثًا وهي زيادة شاذة لم تقع في شيء من كتب الحديث، وهي زيادة مفسدة للمعنى، لأن الصلاة ليست من أمور الدنيا.

(١) السير (١٥/ ٣٩٣-٣٩٤).

(٢) حديث متواتر، روي عن عبدالله بن عمر، وأبي هريرة، وجابر، وأنس، والنعمان بن بشير، وأوس بن حذيفة، وطارق بن أشيم الأشجاعي.
فأما حديث ابن عمر، فأخرجه البخاري: ١/ ٧٠-٧١، ومسلم (٢٢) كلاهما في الإيمان، وأما حديث أبي هريرة، فأخرجه البخاري: ٣/ ٢١١ في أول الزكاة، ومسلم (٢١) في الإيمان، وأبو داود (٢٦٤٠) والنسائي: ٥/ ١٤، وأما حديث جابر، فأخرجه مسلم (٢١) (٣٥) والترمذي (٣٣٣٨). وأما حديث أنس، فأخرجه=

إلٰه إلاَّ اللهُ وأنَّ محمدًا رسولُ الله . فإذا برئَ الصُّوفيُّ منها، فهو ملعونٌ زِنديق، وهو صُوفيُّ الزِّيِّ، والظَّاهر، مُتسترٌ بالنسب إلى العارفين، وفي الباطن فهو من صُوفيَّة الفلاسفة أعداء الرُّسُل، كما كان جماعة في أيَّام النَّبيِّ ﷺ منتسبون إلى صُحبَتِهِ وإلى ملَّته، وهم في الباطن من مَرَدَةِ المنافقين، قد لا يعرفُهُم نبيُّ الله ﷺ، ولا يعلم بهم. قال الله تعالى: ﴿ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ﴾[1] فإذا جاز على سيِّد البشر أن لا يعلمَ ببعض المنافقين وهم معه في المدينة سنوات، فبالأولى أن يخفى حال جماعةٍ من المنافقين الفارغين عن دين الإسلام بعده عليه السَّلام على العلماء من أمَّته، فما ينبغي لكَ يا فقيه أن تُبادر إلى تكفير المسلم إلاَّ ببُرْهان قَطعِيّ، كما لا يسوغ لك أن تعتقد العِرْفان والوِلاَيَة فيمن قد تبرهن زَغَلُه، وانهتك باطنُهُ وزَنْدقته، فلا هذا ولا هذا، بل العدلُ أنَّ مَنْ رآه المسلمون صالحًا محسِنًا، فهو كذلك، لأنهم شهداء

= البخاري: ١/ ٤١٧ في الصلاة: باب فضل استقبال القبلة، وأبو داود (٢٦٤١) والنسائي: ٨/ ١٠٩، والترمذي (٢٦٠٩). وأما حديث النعمان بن بشير فأخرجه النسائي: ٧/ ٩، ٨٠. وأما حديث أوس بن حذيفة، فأخرجه النسائي: ٧/ ٨٠-٨١. وأما حديث طارق بن أشيم الأشجعي، فأخرجه أحمد: ٣/ ٤٧٢، ومسلم (٢٣) ولفظه بتمامه: «من قال: لا إلٰه إلاَّ الله، وكفر بما يُعبد من دون الله، حرم مالُه ودمُه، وحسابُهُ على الله».

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠١.

الله في أرضه[١]، إذ الأُمَّةُ لا تجتمع على ضَلاَلَة[٢]، وأنَّ مَنْ رآه المسلمون فاجرًا أو مُنافقًا أو مُبْطِلاً، فهو كذلك، وأنَّ مَنْ كان طائفةٌ من الأمَّة تُضَلِّلُه، وطائفةٌ من الأمَّةِ تُثْني عليه وتبجِّلُه، وطائفةٌ ثالثةٌ تقِفُ فيه وتتورَّع من الحطِّ عليه، فهو ممَّن ينبغي أن يُعْرِض عنه، وأن يُفوّض أمرُه إلى الله، وأن يُستَغفَرَ له في الجملة، لأنَّ إسلامَهُ أصليٌّ بيَقِين، وضلاله مشكوكٌ فيه، فبهذا تستريحُ ويصفو قلبُكَ من الغِلِّ للمؤمنين.

ثم اعلم أنَّ أهل القِبْلة كلَّهم، مؤمنَهم وفاسقَهم، وسُنِّيَهُم ومُبتدِعَهُم - سوى الصَّحابة - لم يُجمعوا على مسلم بأنَّه سعيدٌ ناجٍ، ولم يُجمعوا على مسلم بأنَّه شقيٌّ هالك، فهذا الصِّدِّيق فردُ الأمَّة، قد علمتَ تفرُّقَهُم فيه، وكذلك عُمَر، وكذلك

(١) أخرج البخاري: ٣/ ١٨١ في الجنائز: باب ثناء الناس على الميت، ومسلم (٩٤٩) في الجنائز: باب فيمن يثنى عليه خير أو شر من الموتى، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: مُرَّ بجنازة، فأثنوا عليها خيرًا، فقال النبي ﷺ: «وجَبَتْ» ثم مروا بأخرى، فأثنوا عليها شرًا، فقال: «وجَبَتْ» فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما وجَبَتْ؟ قال: «هذا أثنيتم عليه خيرًا فوجبت له الجنة، وهذا أثنيتم عليه شرًا فوجبت له النار. أنتم شهداء الله في الأرض».

(٢) حديث «لا تجتمع أمتي على ضلالة» رواه الترمذي (٢١٦٧) والحاكم: ١/ ١١٥ من حديث ابن عمر، ورواه أبو داود (٤٢٥٣) وأحمد في «مسنده» ٦/ ٣٩٧ من حديث أبي بصرة الغفاري، ورواه ابن ماجه (٣٩٥٠) والحاكم: ١/ ١١٦-١١٧ من حديث أنس، ورواه أحمد: ٥/ ١٤٥ من حديث أبي ذر، ورواه الحاكم: ١/ ١١٦ من حديث ابن عباس، وفي كلها مقال: لكنْ يحدث منها قوة للحديث. انظر «المقاصد الحسنة» ص ٤٦٠.

عثمان، وكذلك عليّ، وكذلك ابنُ الزُّبير، وكذلك الحجّاج، وكذلك المأمون، وكذلك بشر المَرِيسي، وكذلك أحمدُ بنُ حنبل، والشَّافعيّ، والبُخاري، والنَّسائي، وهلمَّ جرًا من الأعيان في الخير والشَّر إلى يومك هذا، فما من إمامٍ كاملٍ في الخير إلاَّ وثمَّ أناسٌ مِن جهلة المسلمين ومبتدعيهم يذمُّونه ويحطُّون عليه، وما مِن رأسٍ في البِدعة والتجهُّم والرَّفض إلاَّ وله أناسٌ ينتصِرون له، ويَذُبُّون عنه، ويَدينون بقوله بهوىً وجهلٍ، وإنَّما العِبْرة بقول جمهور الأمَّة الخالين من الهوى والجهل، المتصفين بالورع والعلم، فتدبر ـ يا عبدَ الله ـ نحْلَة الحلاَّج الذي هو من رؤوس القرامِطَة، ودعاة الزَّنْدَقة، وأنصِفْ وتورَّعْ واتَّقِ ذلك، وحاسِبْ نفسَك، فإنْ تبرهَنَ لك أنَّ شمائل هذا المرء شمائلُ عدوٍ للإسلام، محبٍ للرئاسة، حريصٍ على الظهور بباطل وبحق، فتبرَّأ من نِحْلته، وإن تبرهن لكَ والعِيَاذُ بالله، أنَّه كان ـ والحالة هذه ـ محقًا هاديًا مهديًّا، فجدِّدْ إسلامَك واستغِثْ بربِّك أن يوفِّقَكَ للحقِّ، وأن يثبِّتَ قلبَكَ على دينه، فإنَّما الهُدى نورٌ يقذِفُه اللهُ في قلب عبده المسلم، ولا قوةَ إلاَّ بالله، وإن شككتَ ولم تعرفْ حقيقته، وتبرَّأت ممَّا رُمِيَ به، أرحتَ نفسك، ولم يسألكَ اللهُ عنه أصلاً»[1].

وقال ـ رحمه الله ـ تعليقًا على مقولةٍ: «هكذا كانت نُكت

---

(١) السير (١٤/ ٣٤٢-٣٤٥).

العارفين وإشاراتهم، لا كما أحدث المتأخرون من الفناء والمحو والجمع الذي آل بجهلتهم إلى الاتحاد وعدم السِّوَى»[١].

وقال في ترجمة كُرْز: «وعن عمرو بن حُميد الدِّينوري، عن بعض أهل جُرجان، عن أبيه، رأيتُ في النوم: كأني أتيتُ على قبور أهل جُرجان، فإذا هم جلوس على قبورهم، عليهم ثيابٌ بيض فقلت: يا أهل القُبور ما لكم؟ قالوا: إنا كُسينا ثيابًا جددًا لِقدوم كُرز بن وَبَرة علينا.

قلت: هكذا كان زهادُ السلف وعُبَّادُهم، أصحابَ خوف وخُشوع، وتعبد وقُنوع، ولا يدخلون في الدنيا وشهواتها، ولا في عبارات أحدثها المتأخرون من الفناء، والمحو، والاصطلام، والاتحاد، وأشباه ذلك، مما لا يُسوِّغه كبارُ العلماء.

فنسأل الله التوفيق والإخلاص، ولزوم الاتباع»[٢].

وقال تعليقًا على قولٍ لأبي شريح: «تعلَّموا هذه الرغائبَ والرقائق، فإنها تُجَدِّدُ العِبادة، وتُورِث الزهادة، وتجر الصَّداقة، وأَقِلُّوا المسائل، فإنها في غير ما نزل تُقسِّي القلب، وتُورِث العداوة».

«قلت: صدق واللهِ، فما الظَّنُّ إذا كانت مسائل الأصول،

---

(١) السير (١١/ ٤٨٧).

(٢) السير (٦/ ٨٦).

ولوازم الكلام في معارضة النَّص، فَكَيْفَ إذا كانت مِن تشكيكات المنطق، وقواعِدِ الحكمةِ، ودينِ الأوائل؟! فكيفَ إذا كانت من حقائق «الاتّحادِيَّةِ»، وزندقة «السَّبعينية»، ومرق «الباطنية؟! فواغُربتاه، ويا قلَّة ناصراه. آمنتُ بالله، ولا قُوَّةَ إلا بالله»[١].

وقال ـ رحمه الله ـ: «متى رأيت الصوفي مكبًا على الحديث فثق به، ومتى رأيته نائيًا عن الحديث فلا تفرح به، لاسيما إذا انضاف إلى جهله بالحديث عكوف على ترهات الصوفية ورموز الباطنية، نسأل الله السلامة»[٢].

وقال: «أخبرنا أحمدُ بن سَلاَمة في كتابه، عن عبدِالرحيم بن محمد الكاغدِي، وأخبرنا إسحاقُ بن خليل، أخبرنا الكاغَديُّ، أخبرنا أبو علي الحدّاد، أخبرنا أبو نُعَيم، حدثنا إسحاقُ بن أحمد، حدثنا إبراهيمُ بن يوسف، حدثنا أحمدُ بن أبي الحَوَاري قال: قلتُ لراهبٍ في دَير حَرْمَلة، وأشرفَ من صومعته: ما أسْمُكَ؟ قال: جُرَيْجٌ. قلتُ: ما يحبِسُكَ؟ قال: حَبَسْتُ نفسي عن الشهوات. قلت: أما كان يستقيمُ لك أن تذهبَ معنا هاهنا، وتَجيءَ وتمنعَها الشهواتِ؟ قال: هيهات!! هذا الذي تصِفُه قوةٌ، وأنا في ضعف، قلتُ: ولمَ تفعلُ هذا؟ قال: نجدُ في كتبنا أنَّ بَدَنَ ابن آدم خُلِقَ من الأرض، وروحهُ خُلِقَ من ملكوتِ

(١) السير (٧/ ١٨٣).
(٢) السير (١٢/ ٢١٣).

السماء، فإذا أجاع بدنَه وأعراه وأسهره وأقْمَأه نازعَ الرُّوحَ إلى الموضع الذي خَرج منه، وإذا أطعَمه وأراحه أخلد البدنُ إلى المواضع الذي منه خُلِقَ، فأَحبَّ الدنيا. قلتُ: فإذا فعل هذا يُعَجَّل لهَ في الدنيا الثواب؟ قال: نعم، نُورٌ يُوازيه. قال: فحدثتُ بهذا أبا سليمان الدَّاراني، فقال: قاتَلَهُ الله، إنهم يَصِفُون.

قلتُ: الطريقةُ المُثلى هي المحمَّديَّة، وهو الأخْذُ من الطيبات، وتَناوُلُ الشهواتِ المباحةِ من غير إسراف، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾[١]. وقد قال النبيُّ ﷺ: «**لكنِّي أَصُومُ وأُفْطِرُ، وأَقُومُ وأَنامُ، وَآتِي النِّساءَ، وآكُلُ اللَّحْمَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**»[٢]، فلم يَشْرَعْ لنا الرَّهْبانِيَّةَ[٣]، ولا التَّمزُّقَ ولا الوصالَ ولا صومَ الدهرِ،

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٥١.

(٢) قطعة من حديث أخرجه البخاري ٩/ ٨٩-٩٠، ومسلم (١٤٠١)، والنسائي ٦/ ٦٠ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) بل هي من ابتداع من كان قبلنا، ألزموا أنفسهم بها، ومع ذلك فما رعوا حق رعايتها، كما قال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٧]. قال البغوي في قوله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾: وليس هذا بعطف على ما قبله ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً﴾، وانتصابه بفعل مضمر، كأنه قال: وابتدعوا رهبانية، أي: جاؤوا بها من قِبَلِ أنفسهم. وقال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ﴾: فيه قولان: أحدهما أنهم قصدوا بذلك رضوان الله، قاله =

ودينُ الإسلام يُسْرٌ وحَنيفيَّةٌ سَمْحَة، فَلْيأكُلِ المسلمُ من الطَّيِّبِ إذا أمكنه، كما قال تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾[1] وقد كان النساءُ أحبَّ شيءٍ إلى نبيِّنا ﷺ[2]، وكذلك اللحمُ والحلواء والعسلُ والشرابُ الحلو البارد والمِسْكُ، وهو أفضل الخلق وأحبُّهم إلى اللهِ تعالى. ثم العابدُ العَرِيُّ من العلم، متى زهد وتبتَّل وجاعَ، وخلا بنفسه، وتركَ اللحمَ والثمار، واقتصر على الدُّقَّة والكِسْرة، صَفَت حواسُّه ولطُفَت، ولازمته خَطَراتُ النَّفْسِ، وسمع خطابًا يتولَّدُ من الجوع والسهر، ولا وجودَ لذلك الخطاب ـ والله ـ في الخارِج، ووَلَج الشيطانُ في باطنه وخرَج، فيعتقِدُ أنه قد وصلَ، وخُوطب وارتقى، فيتمكَّن منه الشيطانُ، ويُوسوسُ له، فينظُرُ إلى المؤمنين بعين الازدِراء، ويتذكَّرُ ذنوبَهم، وينظُرُ إلى نفسه بعين الكمال، وربَّما آلَ به الأمرُ إلى أن يعتقد أنَّه وَلِيٌّ، صاحبُ كراماتٍ وتَمَكُّنٍ، وربَّما حصلَ له شَكٌّ، وتزلزلَ إيمانُه. فالخَلوةُ والجوعُ أبوجادِ التَّرهُّبِ، وليس ذلك من شريعتنا في شيءٍ. بَلَى، السلوكُ، الكامل هو

= سعيد بن جبير وقتادة. والآخر: ما كتبنا عليهم ذلك، إنما كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله.

(١) سورة الطلاق، الآية: ٧.

(٢) أخرج أحمد ٣/ ١٢٨ و ١٩٩ و ٢٨٥، والنسائي ٧/ ٦١ من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «حُبِّبَ إليَّ من الدنيا النِّساءُ والطِّيبُ، وجُعِلَتْ قُرَّةُ عيني في الصَّلاة». وسنده حسن، وصححه الحاكم ٢/ ١٦٠، ووافقه الذهبي.

الورعُ في القُوتِ، والورعُ في المنطق، وحفظُ اللسان، وملازمةُ الذكر، وتَرْكُ مخالطةِ العامَّةِ، والبكاءُ على الخطيئة، والتلاوةُ بالترتيلِ والتدبُّر، ومَقْتُ النفسِ وذمُّها في ذاتِ الله، والإكثارُ من الصومِ المشروع، ودوامُ التهجُّد، والتواضعُ للمسلمين، وصلةُ الرحِم، والسماحةُ وكَثْرةُ البِشْر، والإنفاقُ مع الخَصاصَةِ، وقولِ الحقِّ المُرِّ بِرِفْق وتُؤَدةٍ، والأمرُ بالعُرف، والأخذُ بالعفو، والإعراضُ عن الجاهلين، والرباطُ بالثَّغْرِ، وجهاد العدو، وحجُّ البيتِ، وتناوُل الطيباتِ في الأحايين، وكثرةُ الاستغفار في السَّحَرِ. فهذه شمائلُ الأولياء، وصفاتُ المحمديين. أماتَنا الله على محبَّتِهم»[(١)].

وقال: «من تسبب في زوال عقله بجوع، ورياضة صعبة، وخلوة فقد عصى وأثم، وضاهى من أزال عقله بعض يوم بسُكر فما أحسن التقيد بمتابعة السنن والعلم»[(٢)].

وقال في ترجمة نجم الدين الكبرى: «وقال ابن هِلالة: جلستُ عنده في الخلوة مرارًا، وشاهدت أمورًا عجيبةً، وسمعت مَن يخاطبني بأشياء حسنة.

قلتُ: لا وجود لمن خاطبك في خلوتك مع جوعك المُفرط، بل هو سماع كلام في الدِّماغ الذي قد طاشَ وفاشَ وبقي قَرعة

(١) السير (١٢/ ٨٨-٩١).
(٢) السير (١٤/ ٢٥٦).

كما يَتِمُّ للمُبَرْسَم[١] والمغمور بالحُمّى والمجنون، فاجزِم بهذا واعبد الله بالسُّنن الثابتة تفلح!»[٢].

وقال: «قال أبو محمد الجريري: سمعتُ الجُنيد يقول: ما أخذنا التَّصُّوف عن القالِ والقيل، بل عن الجُوعِ، وتَركِ الدُّنيا، وقطعِ المألوفات.

قلتُ: هذا حَسَن، ومرادُه: قطعُ أكثر المألوفات، وتركُ فضول الدنيا، وجوعٌ بلا إفراط. أمَّا مَنْ بالغَ في الجُوع كما يفعلُه الرُّهْبان، ورفضَ سائرَ الدُّنيا، ومألوفاتِ النَّفس، من الغذاءِ والنَّومِ والأَهْلِ، فقد عرَّض نفسَه لبلاء عريض، وربَّما خُولِطَ في عَقَله، وفاتَه بذلك كثيرٌ من الحنيفيَّة السَّمْحَة، وقد جعلَ اللهُ لكلِّ شيءٍ قَدرًا، والسَّعادةُ في مُتباعة السُّنَن، فزِن الأمورَ بالعَدل، وصُمْ وأَفْطِر، ونَمْ وقُمْ، والزم الوَرَعَ في القُوت، وارضَ بما قسمَ اللهُ لك، واصمُتْ إلاَّ مِنَ خَير، فرحمةُ اللهِ على الجُنيد، وأين مثلُ الجُنيد في علمه وحاله؟

وعن النُّوريِّ قال: سبيلُ الفانِينَ الفَناءُ في محبوبهم، وسبيل الباقِينَ البقاءُ ببَقائه، ومَن ارتفعَ عن الفَناء والبَقاء، فحينئذٍ لا فناء ولا بقاء.

---

(١) البرسام: علة يُهْذَى فيها.

(٢) السير (٢٢/ ١١٢).

عن القَنَّاد قال: كتبتُ إلى النُّوري وأنا حَدث:

إذَا كانَ كُلُّ المَرْءِ في الكُلِّ فانِيًا
أبِنْ لِيَ عَنْ أيِّ الوُجُودَيْنِ يُخبر

فأجاب لوقته:

إذا كُنْتَ فِيمَا لَيْسَ بالوَصْفِ فَانيًا
فوَقْتُكَ في الأَوْصافِ عِنْدي تَحَيُّر

قلت: هذا يحتاجُ إلى شَرحٍ طويل، وتحرُّز عن الفناء الكلِّي، ومرادُهم بالفَناء، فناءُ الأوصافِ النَّفْسَانيَّة ونحوها، ونسيانُها بالاشتغال بالله تعالى وبعبادتِه، فإنَّ ذات العارفِ وجَسَدَهُ لا ينعدم ما عاش، والكون وما حوى فمخلوق والله خالق كل شيء ومبدعه، أعاذَنا اللهُ وإيَّاكم من قول الاتحاد، فإنه زندقة»[(١)].

وقال في ترجمة ابن الأعرابي: «قال: وكذلك عِلْمُ المعْرفة غيرُ محصورٍ لا نهاية له ولا لوجوده، ولا لذوقه. إلى أنْ قال: ـ ولقد أحسن في المقال ـ فإذا سمعت الرَّجُل يسأَلُ عن الجَمْع أو الفَنَاء، أو يجيب فيهما، فاعلمْ أنَّه فارغٌ، ليس من أهل ذلك إذْ أهلُهما لا يسألون عنه لِعْلمهم أنَّه لا يدرك بالوَصْف.

قلت: إي والله، دقَّقُوا وعمَّقوا، وخاضُوا في أسْرارٍ عظيمة،

(١) السير (١٤/ ٧٢-٧٣).

ما مَعَهم على دَعْواهم فيها سوى ظنٍّ وخيالٍ، ولا وجودَ لتلك الأحوال من الفَنَاء والمحو والصَّحو والسُّكر إلاَّ مجرَّد خَطَرات ووسَاوس، ما تفوَّه بعباراتهم صِدِّيق، ولا صاحبٌ، ولا إمامٌ من التَّابعين. فإن طالبتَهم بدعاويهم مقَتُوك، وقالوا: محجوب، وإن سَلَّمت لهم قِيادَك تخبَّط ما مَعَك من الإيمان، وهبَطَ بك الحال على الحَيْرة والمُحَال، ورَمَقْت العُبَّاد بعين المَقْت، وأهل القرآن والحديثِ بعين البُعْد، وقُلْتَ: مساكين محجوبون. فلا حَوْلَ ولا قوَّة إلاَّ بالله.

فإنَّما التَّصوُّف والتألُّه والسُّلوك والسَّيْر والمحبة ما جاءَ عن أصحابِ محمد ﷺ من الرِّضا عن الله، ولزوم تَقْوى الله، والجهادِ في سبيل الله، والتأدُّب بآداب الشَّريعة من التِّلاوة بترتيلٍ وتدبُّرٍ، والقيام بخشيةٍ وخشوعٍ، وصَوْم وقتٍ، وإفطار وقت، وبَذْل المعروف، وكَثْرة الإيثار، وتَعْليم العَوام، والتواضع للمؤمنين، والتعزُّز على الكافرين، ومع هذا فالله يَهْدي مَنْ يَشاء إلى صراطٍ مستقيمٍ.

والعَالِمُ إذا عَرِيَ من التَّصوف والتألُّه، فهو فارغ، كَمَا أن الصُّوفي إذا عَرِيَ مِنْ عِلْمِ السُّنَّة، زَلَّ عن سواءِ السَّبيل»[١].

وقال في ترجمة الأبهري: «قيل: إنه عمل له خلوة، فبقي

---

(١) السير (١٥/ ٤٠٩-٤١٠).

خمسين يومًا لا يأكل شيئًا. وقد قلنا: إنَّ هذا الجوع المُفْرِط لا يَسُوغُ، فإذا كان سَرْدُ الصِّيام والوصالُ قد نُهي عنهما، فما الظَّنُّ؟ وقد قال نبيُّنا ﷺ: «**اللهم إنّي أعوذُ بكَ من الجُوعِ فإنَّهُ بِئْسَ الضَّجِيعُ**»[(١)]. ثم قلَّ مَنْ عمل هذه الخَلَواتِ المُبْتَدعة إلا واضطربَ، وفسَدَ عَقْلُه، وجفَّ دماغُه، ورأى مرأىً، وسمع خطابًا لا وُجودَ له في الخارج، فإن كان مُتَمكِّنًا من العلمِ والإيمان، فلعلَّه ينجُو بذلك من تَزَلْزُل توحيدِه، وإنْ كانَ جاهلاً بالسُّنَن وبقَواعد الإيمان، تزلزلَ توحيدُه، وطمع فيه الشيطانُ، وادَّعى الوصولَ، وبقي على مَزلَّةِ قدم، وربما تزندقَ، وقال: أنا هو. نعوذُ بالله من النفسِ الأمَّارة، ومن الهوى، ونسأل اللهَ أن يحفَظَ علينا إيمانَنا آمين»[(٢)].

وقال ـ رحمه الله ـ: «فوالله إنَّ ترتيلَ سُبع القرآن في تَهَجُّد قيام الليل مع المحافظة على النوافل الراتبة، والضحى، وتحيَّة المسجد، مع الأذكارِ المأثورة الثابتة، والقول عند النوم واليقظة، ودُبُرَ المكتوبة والسحر، مع النَّظَر في العلم النافع والاشتغالِ به مُخلصًا لله، مع الأمر بالمعروف، وإرشادِ الجاهلِ وتفهيمهِ، وزجرِ الفاسق، ونحوِ ذلك، مع أداءِ الفرائض في جماعةٍ بخشوعٍ وطمأنينة وانكسارٍ وإيمان، مع أداء الواجبِ، واجتنابِ الكبائرِ،

(١) أخرجه أبو داود (١٥٤٧).
(٢) السير (١٧/ ٥٧٦-٥٧٧).

وكثرةِ الدُّعاءِ والاستغفار، والصدقةِ وصلةِ الرحم، والتواضع، والإخلاصِ في جميع ذلك، لَشُغْلٌ عَظِيمٌ جسيم، ولَمَقامُ أصحابِ اليمين وأولياءِ الله المتقين، فإنَّ سائر ذلك مطلوب. فمتى تشَاغَلَ العابدُ بختمةٍ في كُلِّ يوم، فقد خالف الحنيفيَّة السمحةَ، ولم ينهضْ بأكثر ما ذكرناه ولا تدبَّر ما يتلوه.

هذا السيدُ العابدُ الصاحب[١] كان يقول لما شاخَ: ليتني قبلتُ رُخصةَ رسولِ الله ﷺ[٢]. وكذلك قال له عليه السلام في الصوم، وما زالَ يناقِصُه حتى قال له: «صُمْ يومًا وأَفْطِرْ يومًا، صَوْمَ أخي داود عليه السلام»[٣]. وثبتَ أنَّه قال: «أفضَلُ الصِّيام صِيامُ داود»[٤]. ونهى عليه السلام عن صيام الدهر[٥]. وأَمَرَ عليه السلام بنوم قسطٍ من الليل، وقال: «لكني أقُومُ وأنَام، وأَصُومُ وأُفْطِرُ، وأتزوَّجُ النِّساء، وآكُلُ اللحم، فمن رغِبَ عن

---

(١) أي ابن عمرو - رضي الله عنه -.

(٢) قطعة من حديث أخرجه البخاري: ٤/ ١٨٩-١٩١ في الصوم: باب حق الجسم في الصوم، و ٩/ ٨٣ في فضائل القرآن: باب في كم يقرأ القرآن، وإنما قال ذلك بعدما كبر وعجز عن المحافظة على ما التزمه، وفي رواية «لأن أكون قبلتُ الثلاثة أيام التي قال رسول الله ﷺ أحبُّ إلي من أهلي ومالي».

(٣) هو قطعة من الحديث السابق.

(٤) أخرجه البخاري: ٣/ ١٣-١٤ في قيام الليل: باب من نام عند السحر، ومسلم (١١٥٩) (١٨٩) في الصيام: باب النهي عن صوم الدهر، من حديث عبدالله بن عمرو.

(٥) أخرجه البخاري: ٤/ ١٩٥ في الصوم: باب صوم داود، ومسلم (١١٥٩) (١٨٧) في الصيام: باب النهي عن صيام الدهر بلفظ «لا صام من صام الأبد».

سُنَّتِي فليس مني»[١].

وكلُّ من لم يَزُمَّ نَفْسَه في تعبُّده وأوراده بالسُّنَّة النبوية، يندمُ ويترهَّبُ ويسوءُ مزاجُه، ويفوتُه خيرٌ كثيرٌ من متابعة سُنَّة نبيِّه الرؤوف الرحيم بالمؤمنين، الحريص على نفعهم»[٢].

○ ذمه لأعيان المبتدعة:

قد شنع الذهبي على أعيان أهل البدع المنحرفين، وخطَّأ أقوالهم، وحذر من كتبهم، كما يلاحظ ذلك المتدبُر لآرائه وتقاويمه في أمثال: النَّظَّام، ومحمد بن الهُذَيل العلاَّف، وضِرار ابن عَمْرو، ومُعَمَّر بن عَمرو، وهشام بن عَمرو، وعيسى بن صَبيح، والوليد بن أبان، والإسكافي، وجماعة أخرى من المعتزلة ورؤوس البدعة، قد ساقهم الذهبي في نسق فقال: «ومنهم جعفر بن حرب، وجعفر بن مبشر، وأبو غفار، وحُسين

(١) أخرجه البخاري: ٩/٨٩-٩٠، ومسلم (١٤٠١) في أول النكاح، والنسائي ٦/ ٦٠، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.
قال الحافظ في «الفتح»: والمراد بالسنة: الطريقة، لا التي تُقابل الفرض، والرغبة عن الشيء: الإعراض عنه إلى غيره، والمراد: من ترك طريقتي، وأخذ بطريقة غيري، فليس مني، ولمح بذلك إلى طريق الرهبانية، فإنهم الذين ابتدعوا التشديد كما وصفهم الله تعالى، وقد عابهم بأنهم ما وفوه بما التزموه، وطريقة النبي ﷺ الحنيفية السمحة، فيفطر ليتقوى على الصوم، وينام ليتقوى على القيام، ويتزوَّج لكسر الشهوة، وإعفاف النفس، وتكثير النسل.

(٢) السير (٣/ ٨٤-٨٥).

النجار، والرقاش، وأبو سعيد بن كُلاب، وقاسم بن الخليل الدمشقي صاحب التفسير، وثُمامة بن أشْرس النميري، وأشباههم من كان ذكاؤهم وبالاً عليهم، ثم بينهم من الاختلاف والخُباطِ أمرٌ لا يخفى على أهل التقوى، فلا عقولُهم اجتمعت، ولا اعتنوا بالآثار النبوية، كما اعتنى أئمةُ الهدى، ﴿ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ﴾[1]»[2]. وغير هؤلاء من دعاة البدع وأصحاب الزندقة والأهواء، كالخبيث طاغية الزنج علي بن محمد العبدي[3]، وأحمد بن يحيى الرِّيْوَنْدِيِّ الملحد[4]، والحلَّاج[5]، والزنديق المعثر ابن أبي العَزَاقِر[6]، وعدوّ الله سليمان بن حسن القرْمِطي الجَنَّابي[7]، وقاضي الدولة العبيدية النعمان بن محمد المغربي: الذي قال فيه الذهبي: «انسلخَ من الإسلام، فَسُحْقًا له وبُعْدًا»[8]. وعبدالرحيم بن إلياس العبيدي[9]، ابن عم الحاكم بأمر الله،

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٨١.
(٢) السير (١٠/ ٥٥٦).
(٣) المرجع السابق: ١٣/ ١٢٩.
(٤) المرجع السابق: ١٤/ ٥٩.
(٥) المرجع السابق: ١٤/ ٣١٣.
(٦) المرجع السابق: ١٤/ ٥٦٦.
(٧) المرجع السابق: ١٥/ ٣٢٠.
(٨) المرجع السابق: ٦/ ١٥٠.
(٩) المرجع السابق: ١٧/ ٣٠٠.

وطاغية الإسماعيلية ابن غَطاس[١]، والسُّهْرَوَرْدِيّ الفيلسوف[٢]، وابن الفارض[٣] صاحب مذهب «وحدة الوجود».

وقال في ترجمة الصوفي ابن عربي: «وقد عظمه جماعة وتكلفوا لما صدر منه ببعيد الاحتمالات»[٤].

وقال عن بيت المعري:

هذا جناه أبي علي وما جنيت على أحد

«قلت: الفلاسفة يعدون اتخاذ الولد وإخراجه إلى الدنيا جناية عليه، ويظهر لي من حال هذا المخذول أنه متحير لم يجزم بِنِحْلة. اللهم فاحفظ علينا إيماننا»[٥].

وكذا خطَّأ ـ رحمه الله ـ كل من زلَّ وانحرف عن السنة، ولو كان من المعظمين. فقد قال في ترجمة الإمام ابن عقيل: «أخذ علم العقليات عن شيخي الاعتزال أبي علي بن الوليد، وأبي القاسم بن التبان صاحبي أبي الحسين البصري، فانحرف عن السنة»[٦].

---

(١) المرجع السابق: ١٩/ ٢٦٧.
(٢) المرجع السابق: ٢١/ ٢٠٧.
(٣) المرجع السابق: ٢٢/ ٣٦٨.
(٤) السير (٢٣/ ٤٨).
(٥) السير (١٨/ ٣٦).
(٦) السير (١٩/ ٤٤٤).

«كانوا ينهونه عن مجالسة المعتزلة، ويأبى حتى وقع في حبائلهم وتجسَّر على تأويل النصوص، نسأل الله السلامة»[١].

وقال عن ابن الجوزي: «ثم لما ترعرع، حملتْه عمَّتُه إلى ابن ناصرٍ، فأسمعه الكثيرَ، وأحبَّ الوعظ، ولهج به، وهو مراهقٌ، فوعظَ الناسَ وهو صبيٌّ، ثم مازالَ نافقَ السُّوق مُعَظَّمًا مُتَغَاليًا فيه، مُزْدَحَمًا عليه، مضروبًا برونق وعظِهِ المَثَل، كمالُه في ازديادٍ واشتهار، إلى أَنْ مات رحمه اللهُ وسامحه، فَلَيْتَهُ لم يَخُضْ في التأويلِ، ولا خالفَ إمامَهُ»[٢].

وقال عن السلمي الصوفي صاحب كتاب «حقائق التفسير»: «وفي حقائق تفسيره أشياء لا تسوغ أصلاً، عدها بعض الأئمة من زندقة الباطنية، وعدها بعضهم عرفانًا وحقيقة. نعوذ بالله من الضلال ومن الكلام بهوى، فإن الخير كل الخير في متابعة السنة والتمسك بهدي الصحابة والتابعين ـ رضي الله عنهم ـ»[٣].

وقال عن الجويني بعد أن نقل عنه كلمةً: «هذه هفوة اعتزال، هُجر أبو المعالي عليها، وحلف أبو القاسم القشيري لا يكلمه، ونفي بسببها، فجاور وتعبد، وتاب ـ ولله الحمد ـ منها، كما

---

(١) السير (١٩/ ٤٤٧).
(٢) السير (٢١/ ٣٦٨).
(٣) السير (١٧/ ٢٥٢).

أنه في الآخر رجَّح مذهب السلف في الصفات وأقره»[١].

وقال عن القاضي عياض: «تواليفه نفيسة، وأجلها وأشرفها كتاب «الشفاء» لولا ما قد حشاه بالأحاديث المفتعلة عمل إمام لا نقد له في فن الحديث ولا ذوق، والله يثيبه، وينفعُ بـ «شفائِه»، وقد فَعَلَ، وكذا فيه مِن التأويلاتِ البعيدةِ ألوانٌ، ونبيُّنا صلواتُ الله عليه وسلامُه غنيٌّ بِمدْحَةِ التنزيلِ عن الأحاديثِ، وبما تواتَر من الأخبارِ عن الآحادِ، وبالآحاد النظيفةِ الأسانيدِ عن الواهياتِ، فلماذا يا قوم نتشبَّعُ بالموضوعاتِ، فيتطرَّقُ إلينا مقالُ ذوي الغِلِّ والحسد، ولكن مَنْ لا يعلم معذورٌ، فعليكَ يا أخي بكتاب «دلائل النبوة» للبيهقيِّ، فإنه شفاءٌ لما في الصدور وهدًى ونُور»[٢].

وقال عن الهروي صاحب «منازل السائرين»: «قلتُ: قد انتفعَ به خَلْقٌ، وجَهِلَ آخرون، فإنَّ طائفةً من صوفية الفلسفة والاتحاد يخضعون لكلامه في «منازل السائرين»، ويَنتحِلُونه، ويزعمُون أنه مُوافقهم. كلا، بل هو رجل أَثَريٌّ، لَهِجٌ بإثبات نُصوص الصفات، مُنافِرٌ للكلام وأهلِه جدًا، وفي «منازله» إشاراتٌ إلى المحو والفناء، وإنما مُرادُه بذلكَ الفَناءِ هو الغَيْبَةُ عن شُهود السِّوى، ولم يُرِدْ مَحْوَ السِّوى في الخارج، يا ليتَه

(١) السير (١٨/ ٤٧٢).
(٢) السير (٢٠/ ٢١٦).

لا صنَّف ذلك، فما أحلى تصوفَ الصحابة والتابعين! ما خاضوا في هذه الخَطَراتِ والوساوِسِ، بل عبدوا اللهَ، وذَلُّوا له وتَوكَّلوا عليه، وهم من خشيته مُشفقون، ولأعدائِه مُجاهدون، وفي الطاعة مُسارعون، وعن اللَّغو مُعرضون، واللهُ يَهدي من يشاءُ إلى صراط مستقيم»[١].

وقال عن عبدالقادر الجيلاني: «وفي الجملة الشيخ عبدالقادر كبير الشأن، وعليه مآخذ في بعض أقواله ودعاويه، واللهُ الموعد، وبعض ذلك مكذوب عليه»[٢].

وقال عن كتب المبتدعة: «الحذار الحذار من هذه الكتب، واهربوا بدينكم من شبه الأوائل وإلا وقعتُم في الحَيْرةِ، فمن رام النجاةَ والفوز، فليلزم العُبودية، وليُدْمِنِ الاستغاثَةَ بالله، وليبتهِلْ إلى مولاه في الثَّباتِ على الإسلام وأن يُتوفَّى على إيمانِ الصحابة، وسادةِ التابعين، والله الموفق، فَبِحسْنِ قَصْدِ العَالِمِ يُغْفَرُ لَهُ وينجو إن شاءَ الله»[٣].

وقال في كتاب «إحياء علوم الدين» للغزالي:

«أما الإحياء ففيه من الأحاديث الباطلة جملة، وفيه خير

---

(١) السير (١٨/ ٥١٠).

(٢) السير (٢٠/ ٤٥١).

(٣) السير (١٩/ ٣٢٩).

كثير لولا ما فيه من آداب ورسوم وزُهد مِن طرائق الحكماء ومنحرفي الصوفية، نسأل الله علمًا نافعًا، تدري ما العلمُ النافع؟ هو ما نزل به القرآنُ، وفسَّره الرسول ﷺ قولاً وفعلاً، ولم يأتِ نهي عنه، قال عليه السلام: «مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي، فَلَيْسَ مِنِّي»[١]، فعليك يا أخي بتدبُّر كتاب الله، وبإدمان النظر في «الصحيحين»، وسنن النسائي، ورياض النواوي وأذكاره، تُفْلِحْ وتُنْجِحْ، وإياك وآراء عُبَّادِ الفلاسفة، ووظائِفِ أهل الرياضات، وجُوعَ الرهبان، وخطابَ طَيْشِ رؤوسِ أصحاب الخلوات، فَكُلُّ الخير في متابعة الحنيفية السمحة، فواغوثاه بالله، اللهم اهدِنَا إلى صراطك المستقيم»[٢].

○ موقفه من أهل البدع:

يرى الذهبي عدم الانبساط مع أهل البدع أو اكرامهم، بل يكفهر المرء في وجوههم.

قال ـ رحمه الله ـ في ترجمة ابن أبي ذئب: «قال محمد بن عمر الواقدي: ولد سنة ثمانين، وكان من أورع الناس وأودعهم ورمي بالقدر، وما كان قدريًا، لقد كان يتقي قولهم ويعيبه ولكنه كان رجلاً كريمًا، يجلس إليه كل أحد ويغشاه فلا يطرده،

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٦٣) ومسلم (١٤٠١).
(٢) السير (١٩/ ٣٤٠).

ولا يقول له شيئًا، وإن مرض عاده، فكانوا يتهمونه بالقدر، لهذا وشبهه.

قلت: كان حقه أن يكفهر في وجوههم، ولعله كان حسن الظن بالناس»[١].

ويرى أن: «من كُفِّرَ ببدعةٍ وإن جَلَّت، ليس هو مثلَ الكافرِ الأصليِّ، ولا اليهوديِّ والمجوسيِّ، أبى الله أن يجعلَ مَن آمن بالله ورسولِهِ واليومِ الآخر، وصامَ وحجَّ وزكّى وإن ارتكبَ العظائمَ وضَلَّ وابتدع، كمن عانَدَ الرسولَ، وعَبَد الوثَنَ، ونبذَ الشرائع وكفَرَ، ولكن نبرأُ إلى الله من البِدَعِ وأهلِها»[٢].

(١) السير (٧/ ١٤١).
(٢) السير (١٠/ ٢٠٢).

فهرس المحتويات

* * *